

جامعة النجاح الوطنية
كلية الدراسات العليا
كلية الآداب
قسم اللغة العربية

مستويات الخطاب البلاغي في سورة البقرة

رسالة ماجستير

إعداد

عبير محمد فايز مسعد

إشراف

الدكتور خليل عودة

قدمت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير
في قسم اللغة العربية بكلية الدراسات العليا في جامعة النجاح الوطنية

نابلس - فلسطين

٢٠٠١/٥١٤٢١م

مستويات الخطاب البلاغي في سورة البقرة

رسالة ماجستير

إعداد

عبير محمد فايز مسعد

نوقشت هذه الرسالة بتاريخ ٢٠٠١/٢/١١م وأجيزت في ٢٠٠١/٢/١١م

أعضاء اللجنة :

التوقيع

- | | | |
|-------|-----------|----------------------------------|
| | (مشرفاً) | ١-الدكتور خليل عودة |
| | (عضواً) | ٢-الأستاذ الدكتور محمد قاسم نوفل |
| | (ممتحناً) | ٣-الدكتور حسن السلوادي |

الإهداء

إلى كل محب لكتاب الله العزيز تلاوة وتدبراً

إلى والدي العزيز برأله واعترافاً بفضلته

إلى والدتي الحنونة برأها واعترافاً بفضلها

إلى نروحي الفاضل . . . الذي عاش معي متاعب هذا البحث

٥٤٢٨٣٧

إلى عمي الأستاذ عبد المنعم مسعود . . .

الذي كان مُشجعاً ومعيناً لي على السير في هذا الطريق

إلى أبنائي الأعزاء . . . آمنة . . . وعلاء

الشكر والتقدير

أقدم بجزيل الشكر والتقدير إلى الدكتور خليل عودة على صبره وتحمله متاعب الإشراف على هذه الرسالة ، وعلى توجيهاته السديدة وآرائه القيمة التي أثرت هذه الرسالة .

كما أتوجه بجزيل الشكر والتقدير للأستاذين الكبيرين : الدكتور حسن السلواذي ، والاستاذ الدكتور محمد قاسم نوفل اللذين شرفاني بقبول مناقشة هذه الرسالة ، وأفاداني بأرائهما السديدة . سائلة المولى عز وجل أن يحفظهم جميعاً للعلم والدين وأن يتولاهم برعايته .

عبير مسعد

فهرس المحتويات

<u>الصفحة</u>	<u>الموضوع</u>
ت	الإهداء
ث	الشكر والتقدير
ح	فهرس المحتويات المقدمة
١٦-١	الفصل الأول : الخطاب البلاغي
٧-٢	أ- الخطاب البلاغي باللغة .
١٢-٨	ب- الخطاب البلاغي بالصورة .
١٦-١٣	ج- الخطاب البلاغي بالرمز .
٧٦-١٧	الفصل الثاني : علاقة المستوى الخطابي بالمخاطبين .
٣٤-١٨	أ- خطاب الرسل - عليهم السلام -
٤٨-٣٥	ب- خطاب الناس .
٦٦-٤٩	ج- خطاب المؤمنين .
٧٦-٦٧	د- خطاب الكافرين .
١٢٥-٧٧	الفصل الثالث : المستوى البياني في الخطاب البلاغي
٩٠-٧٨	أ- المستوى الأول : التشبيه
١٠٣-٩١	ب- المستوى الثاني : الاستعارة .
١١٧-١٠٤	ج- المستوى الثالث : المجاز .
١٢٥-١١٨	د- المستوى الرابع : الكناية
١٢٧-١٢٦	الخاتمة
١٢٨	الملخص باللغة الانجليزية
١٣٥-١٢٩	المصادر والمراجع

المقدمة:-

دفعتني أسباب عدة لاختيار الخطاب البلاغي موضوعاً لدراستي في أطروحة الماجستير ، فطالما أحببتُ دراسة البلاغة العربية والاطلاع على قضاياها وأسرارها . فاخترت القرآن الكريم ميداناً لهذا البحث ، وجاء اختياري لسورة البقرة ، أساساً لدراسة هذا الموضوع .

وسورة البقرة كخيرها من سور القرآن ، لها طابعها وخصائصها الفنية، ولها تميزها، فقد رُتبت آياتها على نسج بديع ، وأسلوب مميز - لا سيما - في موضوع مستويات الخطاب البلاغي ، الذي سيكون موضوع هذه الدراسة بإذن الله تعالى ومشينته .

والدراسات التي تناولت سورة البقرة لم تفرد دراسة مستقلة لهذا الموضوع ، وإنما تناولت موضوع مستويات الخطاب بشكل عام ، وأحياناً تناولته تناولاً عابراً ، ولم توجد دراسة مستقلة تناولت مستويات الخطاب البلاغي في سورة البقرة .

وقد تنوعت مصادر البحث ومراجعة قديمة وحديثة ، فاستفدت من الدراسات البلاغية وبخاصة كتاب الزمخشري "الكشف عن حقائق التنزيل" ، وكتاب السيوطي "الإتقان في علوم القرآن" ، وكتاب الزركشي "البرهان في علوم القرآن" ، كما نهلتُ من كتب التفسير القرآني وخاصة كتاب ابن عاشور "التحرير والتنوير" ، وكتاب الألوسي "روح المعاني في تفسير القرآن الكريم والسبع المثاني" ، وكتاب سيد قطب "في ظلال القرآن" ، وكتاب الصابوني "صفوة التفاسير" وغيرها . إذ تناولت الحديث عن موضوع الخطاب البلاغي من خلال مقتطفات في تفسير آيات القرآن الكريم . قمتُ بجمعها ودراستها ، واعتمدت في فصلين من بحثي على التحليل والدراسة التطبيقية .

وهذه الكتب جميعها لم تفرد دراسة مستقلة لموضوع مستويات الخطاب البلاغي ، وبشكل خاص في دراسة سورة البقرة ، أو أي من سور القرآن الكريم ، فلم يتم تناول هذا الموضوع بشكل تفصيلي يبين دور الخطاب البلاغي وعلاقته بالمعنى ، الأمر الذي دفعني إلى اختيار سورة البقرة لتكون موضوع دراستي في رسالة الماجستير .

وبما أن القرآن الكريم يعد ميداناً خصباً للدراسات البلاغية بشكل عام ، ودراسة علم البيان بشكل خاص ، فقد ارتبطت علوم كثيرة بالقرآن الكريم ، فكان القرآن الكريم بلغته العربية القاعدة الأولى التي قُعد منها النحو العربي والصرف وعلم القراءات وعلم الأصوات والكتابة والبلاغة . وكل هذا استخدم بشكل فني لا يتجاوز حدود الفطرة والذوق ، كما أن علوماً أخرى ارتبطت بالقرآن الكريم ، ولها علاقة مباشرة بلغة القرآن كعلم التفسير .

وتثير هذه الدراسة عدة تساؤلات ، سنحاول الإجابة عنها ، من خلال الدراسة التي تفترض عدة قضايا مثل : أهمية الخطاب البلاغي في الدراسات البلاغية ، وعلاقة مستوى الخطاب البلاغي بالمخاطبين ، وكيفية التوصل إلى المعنى من خلال نماذج يتم فيها توضيح هذه المستويات ، وموضوعات التشبيه ، والاستعارة ، والمجاز ، والكناية ، بعرض نماذج لكل لون من هذه الألوان البلاغية على حدة ، وعلاقتها بجو النص من ناحية ، ومقتضى الحال من ناحية أخرى .

وقد قسّمتُ بحثي إلى ثلاثة فصول : الفصل الأول : بعنوان " الخطاب البلاغي " ويتضمن ثلاثة أقسام : الخطاب البلاغي باللغة ، والخطاب البلاغي بالصورة ، والخطاب البلاغية بالرمز .

أما الفصل الثاني : فقد جاء تحت عنوان "علاقة المستوى الخطابي بالمخاطبين" ، ويضم إلى أربعة أقسام أيضاً هي : خطاب الرسل - عليهم السلام - ، وخطاب الناس وخطاب المؤمنين ، وخطاب الكافرين . مبينة اختلاف مستوى الخطاب باختلاف المخاطب من جهة ، والغرض الذي جاء من أجله الخطاب من الجهة الأخرى .

أما الفصل الثالث : فجاء بعنوان "المستوى البياني في الخطاب البلاغي" . وفيه أربعة مستويات : المستوى الأول (التشبيه) ، والمستوى الثاني (الاستعارة) ، والمستوى الثالث (المجاز) ، المستوى الرابع (الكناية). وفي هذا الفصل يتم إبراز مواطن الجمال من خلال فنون علم البيان، والتعرف على دلالاتها وعلاقتها بجو النص .

وأخيراً فإنني سأتابع في هذا البحث المنهج التحليلي النقدي في تطبيق القواعد النقدية والأسس البلاغية في الكتب البلاغية القديمة في ضوء المناهج النقدية الحديثة .

والله ولي التوفيق .

الفصل الأول الخطاب البلاغي

- | | |
|-------|---------------------------|
| ٧-٢ | أ- الخطاب البلاغي باللغة |
| ١٢-٨ | ب- الخطاب البلاغي بالصورة |
| ١٦-١٣ | ج- الخطاب البلاغي بالرمز |

أ- الخطاب البلاغي باللغة :

إنّ المتأمل في القرآن الكريم - وهو كتاب الإنسانية الخالد - يدرك من خلال أساليبه في الخطاب أنّ منزلته هو العليم الخبير، خبير بأعماق القلوب وأغوارها ، وأن خطابه المعجز موجه بدقة وإحكام ليلمس البصيرة ، ويحرك الغريزة ، وأنه مهما بلغت العبقرية الإنسانية في نبوغ متجدد فلن تستطيع محاكاته أو مجاراته ، أو أن تصل إلى ما وصل إليه في بناء النفوس ، وتغيير المجتمعات .

ومن خصائص القرآن الكريم توافقه الكامل مع أسلوب الناس في التفكير والشعور ، واستجابته لما تتطلع إليه النفوس في شؤون العقيدة والسلوك ، وإشباعه التام لحاجات هذه النفوس المتطلعة إلى الحق والخير والجمال في كل زمان ومكان ، وهذه الطريقة تعتمد على تنويع الأساليب ، وتلوين الوسائل ، للسيطرة على النفوس المتباينة في طبائعها ، المختلفة في تكوينها النفسي والثقافي ، وبهذا حققت غاياتها من الإقناع والتأثير .

وهناك حقيقة لا يمكن أن نغفلها وهي أنّ هذه الأساليب القرآنية المختارة يكمل بعضها بعضاً ، وهي في تكاملها وتجانسها مثل أعضاء الجسم في أداء الوظائف ، وغاية هذا التقسيم هي الدراسة والبحث .

"والخصوصية في اللفظ أصل الدقة في التعبير ، والوضوح في المعنى ، والصدق في الدلالة"^(١) ، لهذا كان القرآن الكريم يستخدم ألفاظه في مكانها المناسب بحيث تدل دلالة تامة على معانيها بدقة ووضوح وصدق .

والخطاب البلاغي باللغة يختلف عن الخطاب المعجمي المباشر ؛ "لأن الخطاب البلاغي في ذاته يتجه إلى أن يكتسب طبيعة كلية شاملة ، تتجاوز الصبغة الجزئية التي غلبت عليه ، عندما كان يقف عند حدود الكلمة والحالة المفردة ، ويحاول تحليلها بشكل مبسّر لا

١. الزيات ، أحمد : دفاع عن البلاغة ، ص ٩٦ .

ينطلق من منظور شامل . إنه يتجه اليوم ليصبح طريقة في التناول التقني ، ومنهجاً للتحليل العلمي ، دون الاعتماد على مصادرات مسبقة ، ومعايير دائمة ، تستمد صلابتها من البنية الأيدلوجية ^(١) المغلقة ، بل يقدم مجرد فروض قابلة للاختبار ، خاضعةً للتعديل ، منفتحةً على معطيات التطور العلمي ، مما يجعله هيكلًا متتامياً ^(٢) .

ولا تفتّ وظيفة اللفظ في القرآن الكريم عند حد التعبير عن المعنى المراد فحسب بل تتعداه إلى ما يوحيه من صور ، وما يتركه من آثار في النفس الإنسانية ، ومن هنا تأنقت السورة في اختيار الألفاظ الدالة والمصورة للمعنى أكمل تصوير .

وتمتاز عبارات القرآن الكريم وجمله بجودة النظم ، وحسن التركيب ، بحيث لا تجد تعقيداً ولا تنافراً بين الكلمات ، وكأن كل كلمة وضعت في المكان الذي خصص لها ، ولو تم حذفها أو تقديمها أو تأخيرها لاختل النظام ، وتزعزع البناء ، والآيات القرآنية بتناسقها تعرض مشهداً كونياً شاخصاً متكامل الأجزاء ، متناسق الظلال .

إن الناظر في سور القرآن انكريم يرى بجلاء أن لكل سورة فيه إيقاعاً موسيقياً متميزاً له وقع على الأسماع . وهذا التناسق هو في تأليف العبارات بتخير الألفاظ ونظمها في نسق خاص ، فضلاً عن ألوان تعبيرية أخرى .

ولا توصف اللغة بأنها وسيلة للتعبير والخطاب فقط ، بل بوصفها فعلاً إبداعياً متحققاً في نص أدبي ، حيث تتجاوز اللغة مهمة الإقناع والتوصيل المباشر ، إلى مهمة اختزال وتكثيف الواقع ، وجعله رمزاً شفافاً يتجه من خلاله الشاعر نحو رؤيا كونية شاملة ، تخترق الماضي باتجاه المستقبل ^(٣) . ونلاحظ هذا بشكل واضح في القرآن الكريم من خلال ألوان البيان المتنوعة من مجاز واستعارة وكناية ، وهذا كله يمنح اللغة بلاغة وجزالة ، مما يجعله

١. هي الأفكار والمبادئ .

٢. فضل ، صلاح : بلاغة الخطاب وعلم النص ، مكتبة لبنان ، ط ١٩٩٦م ، ص ٣-٤ .

٣. موسى ، إبراهيم نمر : حداثة الخطاب وحدثة السؤال ، مركز القدس ، ط ١ ، ص ٢٥ .

يؤثر في نفس المتلقي ، فينفع معه ، ويسعى إلى فهم معانيه بهذا الخطاب اللغوي ، ليصل إلى ذهن المتلقي .

فالخطاب البلاغي باللغة هو استخدام اللغة استخداماً بلاغياً بحيث تؤدي دلالات ومعاني تزيد النص قوة وجمالاً ، وتعبّر عن المعنى خير تعبير . " ويتأنق أسلوب القرآن في اختيار ألفاظه ، ولما بين الألفاظ من فروق دقيقة في دلالتها ، يستخدم كلاً حيث يؤدي معناه في دقة فائقة ، وتكاد تؤمن بأن هذا المكان كأنما خلقت له تلك الكلمة بعينها ، وأن كلمة أخرى لا تستطيع توفية المعنى الذي وفّت به أختها . فكل لفظة وضعت لتؤدي نصيبها من المعنى أقوى أداء ، ولذلك لا تجد في القرآن ترادفاً بل فيه كل كلمة تحمل إليك معنى جديداً ، ولما بين الكلمات من فروق ، ولما يبعثه بعضها في النفس من إحياءات خاصة ، دعا القرآن ألا يستخدم لفظ مكان آخر" (١).

فبلاغة اللغة تتأتى من انتقاء هذه الألفاظ ، والتعبير عن المعاني ، فضلاً عن موسيقى هذه اللغة التي تزيد النص جمالاً وفناً ، ويسهم هذا كله في إقبال المتلقي على الاستزادة منه ، للاطلاع على خباياه وأسراره ، لغوية كانت أم جمالية أم فكرية . فهي مقدمة بأسلوب بديع يترك أثراً في النفس . خلافاً للنصوص الشعرية والنثرية الأخرى التي مهما حاولت فلن تصل إلى بعض ما وصل إليه القرآن من بلاغة وقدرة على التعبير بلغة معجزة .

وبدون اللغة لا نستطيع أن نعبر عما يجيش في صدورنا من مشاعر ، وما يخلق في أذهاننا من أفكار ، فهي الوسيلة التي نعبر بها عن كل ما نريد ، سواء في استخدامنا لها استخداماً معجماً ، أو في استخدامها استخداماً بلاغياً يوحي بدلالات مختلفة ومتنوعة . و "اللغة هي الظاهرة الأولى في كل عمل فني يستخدم الكلمة أداة للتعبير . هي أول شيء يصادفنا ، وهي النافذة التي من خلالها نطل ، ومن خلالها نتنسم . هي المفتاح الذهبي الصغير الذي يفتح كل الأبواب ، والجنح الناعم الذي ينقلنا إلى شتى الآفاق . وقد عرف الإنسان العالم ، أو حاول أن يعرفه لأول مرة ، يوم عرف اللغة" (٢).

١. أبو علي ، محمد بركات حمدي : مناهج وآراء في لغة القرآن ، دار الفكر ، ص ٨١-٨٢.

٢. إسماعيل عز الدين: الشعر العربي المعاصر وقضاياها وظواهره الفنية والمعنوية ، دار العودة، ط٢، ص ١٧٣.

وحتى تؤدي اللغة دورها البلاغي فهي تختار الألفاظ حسب المقام وحسب الموضوع الذي يتم الحديث عنه ، وتقوم بترتيب هذه الألفاظ ترتيباً بلاغياً يضع كل لفظة في مكانها المناسب ، " إذن غاية البلاغة من اللغة الدلالة على البراعة وخدمة الصنعة ، والتجويد في القول ، وهي وراء الحس التنظيمي أو التألفي لقواعدها وقيامها على التأثير والإثارة "(١).

فاللغة أمام الجميع يستخدمها الكاتب والمتعلم والفنان ، ولكن تأثيرها في المتلقي يختلف باختلاف مستخدمها ، هذا التأثير الذي يولده الأسلوب الذي صيغت فيه اللغة للتعبير عن المعاني والأفكار . " وتبقى أمامنا وظيفة أخيرة للغة وهي التأثير أي الإقناع والتحرك وإحداث رد فعل لدى القارئ أو المستمع ولكي نقتنع لا بد أن نعتمد على الحجج والبراهين المنطقية ونتجه أولاً للعقل بينما ينبغي لكي نؤثر ونحرك أن نمس أولاً جانب الحساسية ونثير رد الفعل العاطفي وترتبط فاعلية الإقناع بمدى تخففه من الأسس المنطقية التي يمكن أن يعتمد عليها الذهن لمعارضته مما يجعل الاستعارة الأداة المثالية لهذا اللون من الإقناع"(٢).

فمن الواضح أن وجود فرق بين اللغة المعجمية التي تؤدي دورها في التعبير عن المعاني بألفاظ تشير إلى هذا المعنى مباشرة ، وبين لغة الخطاب البلاغي و" هي لغة ينتقل بها الأديب من مرحلة التعامل مع اللغة، ومحاولة التفاعل معها، إلى مرحلة السيطرة على اللغة، وفق أحاسيسه ومشاعره المتنامية ، وهو بذلك يوظف اللغة توظيفاً فنياً من خلال وسائل خطاب غير عادية ، يستطيع بواسطتها أن يدفع بالمتلقي إلى تصور ما يريد فعندما يتصل الأمر بالانتقال من معنى إلى آخر فنحن في مجال التغيير الدلالي ، أي في مجال قلب المعاني وتبديلها "(٣)، فلغة الخطاب البلاغي هي ريشة الرسام المبدع ، الذي يقدم لنا المعاني في ثوب جديد ، بعيداً عن اللغة المعجمية الثابتة . فيرسم لنا بواسطتها لوحات فنية معبرة .

١. عبد الله ، محمد صادق حسن : جماليات اللغة وغنى دلالاتها من الوجهة العقديّة والفنية والفكرية ، ط١ ، ص٣٢٦.

٢. فضل ، صلاح : علم الأسلوب مبادئه وإجراءاته ، مؤسسة مختار ، ص٢٥٩.

٣. عودة ، خليل : مستويات الخطاب البلاغي في النص الشعري ، مجلة جامعة النجاح للأبحاث ، مجلد ١٣ ، عدد ٢ ، ص٤٢٦-٤٢٧.

والحقيقة "أن القرآن مكون من ألفاظ مختارة دقيقة موحية ، قد اتسقت في جملها ، واستقرت في مكانها ، وكونت مع زميلاتها آيات تؤثر في نفس سامعها بقوة نسجها ، وجمال موسيقاها ، وقد قدم فيها ما قُدِّمَ ، وأخر ما أخر ، وذكر ما ذكر ، وحذف ما حذف واستعملت صيغة دون أخرى ، لاعتبارات نفسية دقيقة" (١).

فاللغة تختلف باختلاف المخاطب، فالقرآن في خطابه للرسول يختار اللغة اللينة المقتنعة، والأسلوب الهادئ ويخاطبهم بما يحبون سماعه ، وهو كذلك في خطاب المؤمنين إذ يغلب على خطابهم الترغيب ، ولهذا الغرض ألفاظ منتقاه تصاغ بأسلوب بلاغي ، لتصل إلى قلب وذهن الإنسان المؤمن . في حين يختلف الخطاب الموجه للكفار ؛ ففي خطابهم يكثر الزجر والتهديد والوعيد ، وبناءً عليه تختلف لغة الخطاب . وبذلك يمتاز القرآن الكريم في أسلوبه عن غيره من الأساليب البلاغية الأخرى بسمات وخصائص تجعله متميزاً ، ومن هذه الخصائص ما يتعلق بلغته التي تمتاز بـ "الفخامة والقوة والجلال ، يكتسبها القرآن من انتقاء ألفاظ لا امتهان فيها ولا ابتذال" (٢) ، فالقرآن الكريم جاء لغاية سامية ولا بد للتعبير عن هذه الغاية السامية من لغة سامية بعيدة عن الحوشي والفظاظة .

وقد تحدى القرآن الكريم بلغته بلغاء العرب ، إذ قدم للناس كافة قرآناً معجزاً بلغته وبيانه وصوره ، "ولئن كان القرآن قد تحدى بإعجازه اللغوي كل من تكلم باللسان العربي ومن سيتكلم به ، فإنه" (٣) لم ينزل لمجرد هذا التحدي ، وإنما لتأدية رسالة إلهية في كل ما يتعلق بنجاة الفرد وصلاح المجتمع الإنساني في كل زمان ومكان" (٤).

ويأتي تفرد لغة القرآن وبلاغتها ليس من كونها لغة تعبير فحسب ، وإنما بكونها لغة الخطاب البلاغي ، ولا يتأتى ذلك إلا إذا انتظمت هذه اللغة بأساليب تجعلها تؤثر في النفس ،

١. أبو علي ، محمد بركات حمدي : مناهج وآراء في لغة القرآن، ص ٨٠ .

٢. أبو علي ، محمد بركات حمدي : السابق ، ص ١٣ .

٣. هكذا وردت في الأصل والصواب إن دون الفاء حيث اجتمع القسم والشرط فالجواب للسابق منها .

٤. عباس ، حسن : إطلالة على الإعجاز اللغوي في القرآن ، دار المستقبل ، دمشق ، ط١ ، ص ٢٥ .

ويتجلى ذلك في تعبيرها عن المعاني والأفكار بلغة بلاغية تصل بالقارئ إلى فهم المقصود والتفاعل معه .

" وهناك أمر بارز في الحديث عن البلاغة العربية ، ولغة القرآن ، ذلك أن أساليب الناس في التأليف تتفاوت ، وأحياناً تتعارض ، أما البيان في كلام الله تعالى ، فإنه منزّه عن هذه الاختلافات ، فإنه على منهاج واحد في النظم ، مناسب أوله آخره ، وعلى مرتبة في غاية الفصاحة ... أما اختلاف الناس فهو تباين في آراء الناس لا في نفس القرآن"^(١). ومن هنا يمكننا القول بأن القرآن الكريم ببلاغة خطابه اللغوي ناسب أفهام الناس جميعاً ، من متقنين ومتعلمين ، ومن حكام ورعية ، ومن رجال ونساء . وهذا من مميزات الخطاب القرآني . و "لا يكون الجمال اللغوي في دلالة اللفظة وإنما في فن الجملة وتأليفها اللغوي"^(٢).

١. الحديدي ، محمد أبو النوار : البيان في دفع التعارض المتوهم بين آيات القرآن ، مطبعة الأمانة ، ص ٤٤.
انظر : عبد الحميد ، محسن ، دراسات في أصول تفسير القرآن ، مطبعة الوطن العربي ، ص ١٣٨.
٢. عبد الله ، محمد حسن : جماليات اللغة وغنى دلالاتها ، ص ٢٩ .

ب- الخطاب البلاغي بالصورة :

اشتملت سورة البقرة كغيرها من سور القرآن الكريم على معان كثيرة تحقق أغراضاً سامية ، فاختارت للتعبير عن هذه المعاني وتلك الأغراض طرق العرض المناسبة التي تجمع بين البيان والتوضيح ، وتحقق الإقناع والتأثير ، ذلك " أن طريقة الأداء حاسمة في تصوير المعنى ، وأنه حيثما اختلفت طريقتان للتعبير عن المعنى الواحد اختلفت صورتا هذا المعنى في النفس والذهن ، وبذلك ترتبط المعاني وطرق الأداء ربطاً لا يجوز الحديث بعده عن المعاني والألفاظ كل على انفراد "(١).

والحق أن لهذه الطريقة المتبعة في العرض الفضل في إبراز المعاني في صورتها الجميلة المعبرة ، وتحقيق الأغراض الدينية والبيانية التي يريد أن يصل إليها الخطاب القرآني بمخاطبة منافذ النفس المتعددة ، ومن هنا كان الجمال الفني الذي اتسم به التعبير هو نتاج هذه الطريقة المتبعة في عرض الحقائق .

" وتطلق كلمة الشكل البلاغي أو الصورة على "الصيغة الكلامية التي تتسم بحيوية أشد من اللغة العادية وتهدف إلى جعل الفكرة محسوسة عن طريق المجاز كما تلفت النظر بدقتها وأصالتها " وهو تعريف لا يخلو على أية حال من اللبس والإفهام "(٢) . اللبس في أنها تتسم بحيوية أشد من اللغة العادية ، والإفهام في جعلها محسوسة عن طريق المجاز .

ومن المعلوم أن بعض الألفاظ لها قدرة كبيرة على التصوير ، يضاف إلى ذلك أن الكلمة الواحدة المصورة تأتي منسجمة مع الجو العام للمشهد المعروض ، وهذا من التناسق الفني الناتج عن كلمة واحدة .

أما التناسق في العبارات المصورة فواضح في المشاهد المعروضة كلها ، بحيث نجد انسجاماً كاملاً وربطاً محكماً بين أجزاء الصورة سواء أكان المشهد المعروض طويلاً أم قصيراً .

١. قطب ، سيد :التصوير الفني في القرآن ، دار المعارف ، ص ٢٤٠

٢. فضل ، صلاح :علم الأسلوب ، ص ١٤٩-١٥٠ .

ونلاحظ أن القرآن الكريم في عرضه للصور الفنية وما يقابلها من صور أخرى تتقابل معها في الشكل والمضمون، يستخدم أسلوباً بلاغياً معتمداً على الصورة، " فهو يعرض جميع القضايا الكبرى في هذا الوجود بأسلوب التقابل حين يجمع في الطريقة بين الشيء وضده، والمعنى ونقيضه" (١)، وهذا من شأنه أن يضع الصورة واضحة أمام القارئ ليقرر في أي وضع يريد أن يكون .

والقرآن في تصويره للمعاني يجعلها حسية ملموسة قريبة من الأذهان، بعد أن كانت معنوية مجردة، ويرسم من خلالها صوراً حية مليئة بالحركة والصوت واللون، تجعل القارئ لها يعجب بجمالها، وحسن صياغتها. ويمكن القول إن "الصورة ليست مجرد قدرة على تنسيق لفظي بل إن كل إحياء فيها يعمل على بث إعطاء يتفاعل في النفس" (٢). فالصورة تحرك في المتلقي عدة جوانب وتشرك فيه أكثر من حاسة إذ " يقوم الأسلوب التصويري على لغة البصر والبصيرة، لذلك كان يعكس دلالات الحس والمعنى... وقد عالج الأسلوب القرآني هذا المثال، أو أن هذا الأسلوب تنازعه التعبير القرآني ليحمل دلالات مؤثرة وأكثر ايصالاً للقلب والعقل وترسيخاً في الفكر والنفس من غيره" (٣).

فالقرآن الكريم اعتمد على تنوع أساليبه البلاغية، فاختر لكل موضوع وفكرة لونا خطابياً بلاغياً يلائمه. وهكذا " يتطور أسلوب الخطاب من مجرد خطاب يعتمد لغة محددة في قوالب ثابتة إلى تفاعل متنام يرتقي بالصورة المفردة من خلال علاقتها مع الصور الأخرى، إلى تركيب فني متكامل، يعطي الخطاب البلاغي مفهوماً أعمق" (٤).

ويلجأ القرآن إلى إبراز الثنائية صوراً متقابلة تبرز جميع أجزائها، ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات﴾ (٥)، " وعرض الصورة الفنية وما يقابلها أمر

١. بالطاهر، بن عيسى: المقابلة في القرآن الكريم، دار عمار، ط١، ص ٢١٣.

٢. عيد، رجاء: دراسة في لغة الشعر، منشأة المعارف، ص ٤٤.

٣. عبد الله، محمد حسن: جماليات اللغة وغنى دلالاتها، ص ٢٤٦.

٤. عودة، خليل: مستويات الخطاب البلاغي في النص الشعري، ص ٤٢٨.

٥. بعض الآية ٢٥٧ من سورة البقرة.

مقصود في التعبير القرآني لما فيه من قدرة على التأثير والإقناع ، لأن عرض الصورة في اتجاه واحد ، وفي غرض واحد ، قد لا يكون له نفس الحظ من الكمال في التعبير مثلما تعرض الصورة ونقيضها في نفس السياق مما يتيح للقارئ والمتأمل فرصة الجمع بين الصورتين في سياق واحد ، فيعرف جميع أجزاء الصورتين المتضادتين ويُسهّل عليه هذا عقد المفاضلة والمقارنة بينهما ليأتي الحكم والاختيار بعد المعرفة الكاملة بالصورة وما يقابلها^(١).

وبهذا يضع الخطاب القرآني القارئ أمام لوحات فنية معبرة ، تتقله من المعنوي إلى الحسي ، ومن الخفي إلى الظاهر ، لتقربها إلى ذهنه وتجعله يتفاعل معها ويدركها خير إدراك . ويزداد الفن الخطابي إبداعاً وتميزاً باعتماده " على الخطاب البلاغي في توجيه أحاسيس المتلقي ، والسيطرة على انفعالاته ... ليصل إلى المستوى المطلوب في نمو الصورة ، والدفع بها باتجاه التفاعل الحيوي بين النص والمتلقي "^(٢).

وقد تكون الصورة مرعبة مخيفة - لا سيما- في وصف الكفار ، في حين تكون هادئة في وصف المؤمنين ونعيمهم . فبدون التصوير لا يتسنى للقارئ التعرف على ما ينتظر المؤمن من نعيم ، وما ينتظر الكافر من جحيم . " وعلى هذا ترتبط "الصورة" بكل ما يمكن استحضاره في الذهن من مرئيات ، أي ما يمكن تمثله قائماً في المكان ، كما هو شأن الصورة في الفنون التشكيلية "^(٣). ومما يؤكد هذا أن المشبه به في الغالب حسي قريب من القارئ أو المتلقي . وهنا تبرز أهمية الصورة الفنية التي تتمثل " في الطريقة التي تفرض بها علينا نوعاً من الانتباه للمعنى الذي تعرضه ، وفي الطريقة التي تجعلنا نتفاعل مع ذلك المعنى ، ونتأثر به . إنها لا تشغل الانتباه بذاتها إلا لأنها تريد أن تلفت انتباهنا إلى المعنى الذي تعرضه ، وتفجونا بطريقتها في تقديمه . هناك معنى مجرد ، اكتمل في غيبة من الصورة ، ثم تأتي الصورة فتحثوي ذلك المعنى وتدل عليه ، فتحدث فيه تأثيراً متميزاً ، وخصوصية لافتة ، ذلك أنها لا تعرضه كما هو في عزلة واكتفاء ذاتيين ، وإنما تعرضه بواسطة سلسلة من الإشارات

١. بالظاهر ، بن عيسى : المقابلة في القرآن الكريم، ص ٢١٧ .

٢. عودة ، خليل : مستويات الخطاب البلاغي في النص الشعري ، ص ٤٢٧ .

٣. إسماعيل، عز الدين : الشعر العربي المعاصر ، ص ١٤١ .

إلى عناصر أخرى ، متميزة عن ذلك المعنى ، لكنها يمكن أن ترتبط به على نحو من الأنحاء وبهذه الطريقة تفرض الصورة على المتلقي نوعاً من الانتباه واليقظة^(١) .

وتجاوزت الصورة في كثير من الأحيان " حدود الدلالة الحسية الضيقة ، واعتمدت على الإيحاء الرحب وليس على تقرير الأفكار أو بسطها ، وإذا فهمت على أنها بناء مركب تتأزر جزئياته وتتنامى ، ولم ينظر إليها - كما يفعل بعضهم - على أنها مجرد وسيلة للتعبير غير المباشر ، غدت تلك الصورة وأمثالها رموزاً تثير من النواحي النفسية ما لا تقوى على أدائه اللغة في دلالتها الوضعية"^(٢) . فلو نظرنا إلى المشبه في أغلب تشبيهات القرآن الكريم وجدناه عقلياً ، قد لا يتعرف المتلقي عليه ، أو لا يستطيع فهمه ، لذلك اعتمد الأسلوب التصويري في القرآن الكريم على تصوير العقلي بالحسي ، مستخدماً أكثر من حاسة لإدراك المعنى و "يستخدم القرآن الكريم التصوير بأسلوب البصيرة لا البصر أي إدراك الوجدانية من خلال العلم والتفكير والرؤية ، بالفكر أو البصيرة لا من خلال إدراك النظر المجرد"^(٣) ، لأن هذه الأمور لا يمكن رؤيتها بالعين المجردة ، لذلك يلجأ الخطاب القرآني للبحث عما يسد مسد النظر بالعين ، ألا وهو الإدراك بالعقل والقلب ، ولا يكون ذلك إلا باستخدام أسلوب مقنع معتمد على تكثيف المعنى وإبرازه بشكل واضح . "قانظر إلى الأسلوب اللغوي التصويري كيف حمل فتنة من الدلالات الفنية . التي تثير الإعجاب ، واختلاف درجة الإحساس بها تبعاً لمظهرها الأسلوبي التصويري"^(٤) . فمنها ما يحرك العاطفة ويثيرها ، ومنها ما يثير التفكير ، ومنها ما يؤثر في العقل والقلب معاً.

أما عن دور المجاز في تكوين الصور "فإن للمجاز المرسل دوراً نشطاً في تكوين الصور الأدبية فليست الاستعارة الشكل المجازي الوحيد الذي يضيف عنصراً محدداً للمستوى الإشاري للقول بل إن بعض الصور الهامة اللافتة لا تتم إلا من خلال عمليات المجاز

١. عصفور ، جابر: الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب ، دار التنوير للطباعة والنشر ، ط ٢ ، ص ٣٢٧-٣٢٨ .

٢. أحمد ، محمد فتوح : الرمز والرمزية في الشعر المعاصر ، دار المعارف ، ط ٣ ، ص ٣٠٦ .

٣. عبدالله ، محمد حسن : جماليات اللغة وغنى دلالاتها ، ص ٢٤٦ .

٤. عبدالله ، محمد حسن : السابق ، ص ٢٤٧ .

المرسل إما باعتبارها أساس الصورة ، وإما باعتبارها الدعامة التي تثيرها عندما تضع شيئاً متعيناً مكان شيء مجرد" (١) .

ومن المعلوم أنه عندما تشترك أكثر من حاسة في التعرف على الأفكار وإدراكها ، فهذا من شأنه أن يبقي هذه الأفكار وتلك المعاني ثابتة في الذهن أطول فترة ممكنة .

"وقد لا يكتفي الباحث في طبيعة الصورة الأدبية بتحليل عناصرها المكونة بل يعمد إلى دراسة العلاقة بين الطرفين للتمييز بين المجرد والمحسوس" (٢) ، فتحليل التشبيهات على أنها مشبه ومشبه به ووجه شبه وأداة تشبيه . هذا التحليل بات معروفاً ، ولكن البحث في الألفاظ التي تكونت منها هذه الصورة، وما لهذه الألفاظ من دلالات، ومدى ارتباطها بالنص المقروء. هذا ما تسعى إليه الدراسات الحديثة في معرفة النصوص المختلفة .

١. فضل ، صلاح : علم الأسلوب ، ص ٢٥٥

٢. فضل ، صلاح : السابق ، ص ٢٧٦

ج- الخطاب البلاغي بالرمز:

يستخدم القرآن الكريم أسلوب الرمز وسيلة من وسائل الخطاب البلاغي في تقديم بعض المعاني ووصولاً إلى غايات متعددة لا يمكن تحقيقها دون الاعتماد على الرمز ، "الرمزية هنا مفهومة بالمعنى الفني الضيق ، أي باعتبارها طريقة في الأداء الأدبي تعتمد على الإيحاء بالأفكار والمشاعر وإثارتها بدلاً من تقريرها أو تسميتها أو وصفها"^(١) .

والرمز يفتح أمام المتلقي آفاقاً واسعة رحبة ، ويخرجه من المجال الضيق الذي يفرضه عليه التعبير المعجمي المباشر . "والرمزية تصبح المذهب الفني الذي يستبطن العالم الخارجي ويستظهر العالم الداخلي"^(٢) ، فهو يطلع القارئ على أمور متنوعة ومختلفة لا تستطيع اللغة المعجمية التعبير عنها ، أو السمو بالقارئ إلى هذا المستوى التحليلي الذي يصل به إلى قمة التعبير الفني .

والقارئ في القرآن الكريم يقف أمام ألوان بلاغية متنوعة ومختلفة ، تتحد مع بعضها البعض لتبلغ الذروة في التعبير الفني البلاغي ، الذي يضيف على المعاني والأفكار جمالاً واضحاً . ويقف القارئ " أمام وسيلة خطاب من نوع جديد ، يتجاوز فيه الصور البلاغية المفردة أو المركبة إلى رمز ... بأسلوب بلاغي متميز ، يفرض على القارئ مزيداً من الوعي بأبعاد الفكرة التي يقدمها ، ودلالات الصور التي يوظفها"^(٣) .

وباعتماد القرآن الكريم على هذه الألوان البلاغية يقوم ب"كسر اللغة الخطابية التقليدية المباشرة ، والتي لا يكون فيها مسافة بين الدال والمدلول ، فتكون اللغة تبعاً لذلك ذات بعد واحد يهدف إلى الإبلاغ والتوصيل ، متجهاً نحو لغة رمزية موحية مكثفة ، ذات أبعاد متعددة"^(٤) .

١. أحمد ، محمد فتوح : الرمز والرمزية في الشعر المعاصر ، ص ٣ .

٢. الحاوي ، إيليا: الرمزية والسريالية في الشعر الغربي والعربي ، دار الثقافة ، ص١٢ .

٣. عودة ، خليل : مستويات الخطاب البلاغي في النص الشعري ، ص ٤٣٨ .

٤. موسى ، إبراهيم نمر : حدائث الخطاب وحدائث السؤال ، ص ٤٥ .

ويعتمد الرمز كلياً على الإيحاء المقصود، فالرمز "هو أسلوب إيحائي يُقيد هدفاً معيناً، وموضوع اللوحة لا يكون الرسم فيه بعيداً عن الإيحاء التي تُقصد من وراء الخطوط والأشكال ، وهو أسلوب ترمي فيه اللوحة لمعنى أوسع من حدودها ، انه يفتح أفقاً لإعطاء مفهومات أشمل مما يرى الإنسان من خطوط وظلال وألوان"^(١) . فالقرآن يعبر عن بعض المعاني برموز موحية ومثال ذلك قوله عن الكافرين : ﴿ولا يكلمهم الله ولا يزكيهم﴾^(٢) ، ولا يتوصل القارئ إلى هذه الإيحاءات من الوهلة الأولى ، إذ لا بد له من التعمق في هذا اللون البلاغي ليصل إلى الإيحاء والمقصود الذي تم التعبير عنه بالأسلوب الرمزي ، " إنه خاصية التفكير اللاشعوري فالقدرة التصويرية التي تعتمد على وساطة الرمز وطرائقه في الدلالة نستطيع أن نلمح دلالتها عن طريق الصلة المشتركة بين الرمز والمرموز إليه وإن كان في بعض الأحيان واضح الدلالة وفي بعض الأحيان يعتبر خفي الدلالة "^(٣) .

ومن الألوان الرمزية في القرآن الكريم الكناية ، إذ يعبر القرآن الكريم عن معان متعددة بالأسلوب الكنائي ، حفاظاً على قوة ألفاظ القرآن وجزالتها .

وللرمز مراحل يمر بها و " معنى ذلك أن الرمز يبدأ من الواقع ليتجاوزه فيصبح أكثر صفاءً وتجريداً ، ولكن هذا المستوى التجريدي لا يتحقق إلا بتقنية الرمز من تخوم المادة وتفصيلاتها ، لأنه يبدأ من الواقع ولكنه لا يرسم الواقع بل يرده إلى الذات ، وفيها تتهاير معالم المادة وعلاقاتها الطبيعية لتقوم على أنقاضها علاقات جديدة "^(٤) ، أي أننا حتى نصل إلى المقصود من الرمز لا بد أن نتعرف عليه ونحلله بعيداً عن المادة وعلاقاتها . وحتى نتذوق جمال الرمز ، ونطلع على التفنن الخطابي للغة القرآن الكريم فلا بد من ربط هذا الرمز وإيحاءاته بجو النص ، ثم المقارنة بينه وبين استعمال اللغة المعجمية وملاحظة الفرق بينهما .

١. سلطان ، ناديا : التصوير بالكلمات مشروع دراسة للصورة الفنية في القرآن ، إشبيلية - دمشق ، ط١ ، ص٧٧ .

٢. بعض الآية ١٧٤ من سورة البقرة .

٣. عيد ، رجاء : دراسة في لغة الشعر ، ص ٢٦ .

٤. أحمد ، محمد فتوح : الرمز والرمزية في الشعر المعاصر ، ص١٣٦-١٣٧ .

و " الرمزية سمة للأسلوب وليست سمة للكلمات أو الصور الجزئية ، والرمز لا يكتسب قيمته إلا من خلال البناء الكلي للقصيدة ، فالكلمة مفردة لا تعني سوى ما تدل عليه ، ولكنها تعني الكثير متى أصبحت عضواً حياً في جسم الرمز أو وحدة القصيدة " (١) . فلو أخذنا الكلمة مجردة لكان لها معنى واحداً ، ولكن عندما تصاغ بجمل وتأخذ مكانها بين الكلمات نستطيع تمييزها وتسميتها رمزاً .

" ومع أن الرمزية تأكدت وظهرت كمذهب واع في النصف الأخير من القرن التاسع عشر " (٢) ، إلا أنها فن تعبيري من فنون القرآن الكريم البارزة ، وهذا يؤكد مدى بلاغة القرآن الكريم في تعبيره عن المعاني والأفكار ، واحتوائه فنوناً لم يصل إليها المبدعون حتى الآن .

" ومن هنا كانت "الرمزية" فن التعبير عن الأفكار والعواطف لا بوصفها ولا بشرحها من خلال مقارنات أو تشبيهات ولكن بالإيماء إليها بواسطة إعادة خلقها في ذهن المتلقي من خلال استخدام الرموز " (٣) ، فالرمز يعتمد على الاختصار ومجرد الإشارة إلى المعنى ، مبتعداً عن التوضيح والتفسير . فلو اعتمد على الشرح والتفصيل لضاع جماله الفني ، ولم يعد بحاجة إلى توسيع المدارك ، وإعمال الفكر .

وتكمن قيمة التعبير الرمزي " في استخدام المعنى الرمزي للاحاطة بالأشياء المبهمة والشاردة التي تكون العالم وتشغل الحياة ثم يحولها إلى موضوعات جمالية " (٤) ، تتحد مع غيرها من فنون بلاغية جمالية ، مما يزيد النصوص القرآنية بلاغة وسمواً ، فهو يناسب أفهام الناس جميعاً على اختلاف مشاربهم الثقافية والعلمية ، ويحظى باعترافهم جميعاً بجماله الفني كل حسب تذوقه لهذه الفنون المتنوعة .

-
١. أحمد ، محمد فتوح : الرمز والرمزية في الشعر المعاصر ، ص ٤٢١ .
 ٢. الحاوي ، إيليا ، الرمزية والسريالية في الشعر الغربي والعربي ، ص ١٣٠ .
 ٣. عيد ، رجاء : دراسة في لغة الشعر ، ص ٢٢ .
 ٤. عيد ، رجاء : دراسة في لغة الشعر ، ص ٣٦ .

" وعلى ذلك فإن الصورة الرمزية يكون من مهمتها أنها تقوم بإحياءات متتالية . لا تعتمد على تشابه مظهري بين الأشياء بل إن الرمز أداة عقلية لانجاز التعبير تنضم إلى غيرها " (١) لتصل بالخطاب القرآني إلى قمة الابداع والتفنن في التعبير عن جميع المعاني والأفكار التي تم تناولها في القرآن ، بحيث يتم اختيار كل فن من الفنون حسب الموضوع المراد طرحه ، وحسب إثارته للفكر أو العاطفة ، ليتمكن القارئ من التفاعل مع النصوص المختلفة مهما كانت الألوان البلاغية المستخدمة في الوصول إلى المعاني . ولا يدرك القارئ جمال هذه الفنون إلا من الأسلوب الذي تقدم من خلاله ، والجمل والتراكيب وكيفية بنائها وترابطها مع بعضها البعض .

١. عيد ، رجاء : السابق ، ص ٤٦ .

الفصل الثاني

علاقة المستوى الخطابي بالمخاطبين

- | | |
|-------|--------------------------------------|
| ٣٤-١٨ | أ- خطاب الرسل (عليهم انصلاة والسلام) |
| ٤٨-٣٥ | ب- خطاب الناس |
| ٦٦-٤٩ | ج- خطاب المؤمنين |
| ٧٦-٦٧ | د- خطاب الكافرين |

أ- خطاب الرسل (عليهم الصلاة والسلام):

إن الخطاب القرآني رغم تناوله لموضوعات متنوعة مثل التشريع والقصاص والمواعظ والترغيب والترهيب إلا أنه ظل على مستوى واحد من سمو . يقول الإمام الباقلائي: "إن القرآن على اختلاف ما يتصرف فيه من الوجوه الكثيرة ، والطرق المختلفة ، يجعل المختلف كالمؤتلف والمتباين كالمتناسب والمتناظر في الأفراد إلى حد الأحاد . وهذا أمر عجيب تتبين فيه الفصاحة، وتظهر فيه البلاغة ويخرج به الكلام عن حد العادة ويتجاوز العرف" (١) .

وقد جمع القرآن الكريم أطراف البلاغة والبيان ، فجاء الخطاب القرآني موافقاً لمقتضى أحوال المخاطبين .

وقد تميّز الخطاب القرآني للنبي -صلى الله عليه وسلم- بميزات كثيرة عمن سواه ، إشارة إلى علو مقامه ورفعة شأنه منها : أنه خوطب بالنبوة والرسالة في حين خوطب الأنبياء بأسمائهم . ومعلوم فضل النبوة والرسالة على ما عداها من الأسماء والألقاب والكنى التي يشترك فيها الكثير من الناس ، لكن النبوة والرسالة شرف رباني يصطفي به الله من يشاء من عباده .

وفي خطابه ، سبحانه وتعالى، للمؤمنين أكثر من استعمال صيغة ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ عند مخاطبتهم ، وهي " خطاب شريف لا تخصيص " (٢) .

وخاطب الناس بقوله: ﴿يا أيها الناس﴾ خطاب عموم يشمل جميع الناس ، في حين جاء خطاب الكفار دون واسطة ، وامتاز بالتفريع الشديد في الغالب ردعاً لهم عما هم فيه .

١.الباقلائي ، القاضي أبو بكر : إعجاز القرآن على هامش الإتيان للسيوطي ، المكتبة الثقافية ، ج ١ ، ص ٥٧.

٢.السيوطي ، جلال الدين عبد الرحمن : الإتيان في علوم القرآن ، المكتبة الثقافية ، ط ١ ، ج ١ ، ص ١١ .

وانظر السيوطي: معترك الأقران في إعجاز القرآن ، تحقيق على محمد البجاوي ، دار الفكر العربي ، ج ١ ، ص ٢١٧ .

وقد تعدد خطاب الرسل في سورة البقرة ، فجاء أولها لسيدنا محمد - صلى الله عليه وسلم - في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾^(١) .

يستهل الخطاب بالحديث عن الكفار فيقدم "الذين كفروا" لأن الحديث هنا عنهم ، وفي هذا الخطاب مواسة للنبي -صلى الله عليه وسلم- في عدم إيمان هؤلاء الكفار وتأنيس له. ونلاحظ أن الخطاب بدأ بحرف التوكيد (إن) ؛ ليعلم النبي -صلى الله عليه وسلم- أن لا سبب له في عدم هدايتهم ، وفي قوله ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ ، "ففيها تينيس وإقناط من إيمانهم"^(٢) . كما نلاحظ الخطاب الهاديء الحاتي الذي يملأ نفس الرسول -عليه السلام -طمأنينة وهدوءاً .

ويأتي خطاب النبي -صلى الله عليه وسلم -في شكل آخر ، في قوله تعالى : ﴿ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾^(٣) ، والخطاب هنا للنبي يوجهه للمؤمنين ، "إذ ليس للمؤمنين ذكر في هذا الخطاب فلم يكن طريق لخطابهم إلا الإرسال إليهم"^(٤) ، إذ لم يوجه الخطاب للذين آمنوا مباشرة ، وإنما يجعل الرسول -صلى الله عليه وسلم - واسطة لهذا الخطاب ، وقد اختص الخطاب ببشرى المؤمنين ، حتى تهدأ نفوسهم ، تشجيعاً لهم على تحمل المصاعب والآلام من الكفار ، فهو من قبيل تكليفه -عليه السلام - بحمل البشائر الطيبة إلى العباد ، وهذا من شأنه أن يحببه إلى عباد الله أجمعين .

وهنا تبرز الثنائية واضحة ، ففي السياق السابق جاء الخطاب ليبيّن للرسول الكريم عدم الفائدة من إنذاره للكفار ، في حين يختلف الخطاب ليبيّن مصير المؤمنين ، ألا وهو الجنة . في الوقت الذي يبيّن فيه مصير الكافرين في نار جهنم . وقد جاءت بشرى المؤمنين بالجنة تالية لحال الكافرين .

١. الآية ٦ من سورة البقرة .

٢. الصابوني ، محمد علي : صفوة التفاسير ، دار القلم ، ط ٥ ، ج ١ ، ص ٣٣ .

٣. بعض الآية ٢٥ من سورة البقرة .

٤. ابن عاشور ، محمد الطاهر : التحرير والتوير ، دار سحنون للنشر ، ج ١ ، ص ٣٥١ .

لهم ، وبياناً لقدرته عز وجل . وقد نادى سبحانه وتعالى سيدنا آدم باسمه العلم كما هو الحال "مع أنبيائه ما عدا نبينا -صلى الله عليه وسلم - حيث ناداه بـ ﴿ يا أيها النبي ﴾ و ﴿ يا أيها الرسول ﴾ لعلو مقامه ورفعة شأنه إذ هو الخليفة الأعظم" (١) . وهذا الخطاب خطاب تكليف لسيدنا آدم -عليه السلام- فعندما يكون الخطاب من الأعلى إلى الأدنى يكون خطاب أمر وتكليف كما هو الحال في هذا الخطاب .

وفي السياق نفسه يخاطب سيدنا آدم -عليه السلام- في قوله تعالى : ﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ (٢) . وقد بدأ الخطاب بالنداء ، كما في الخطاب السابق ، إشعاراً بأهمية ما سيقال فيما بعد ، وجاء الخطاب باسمه مجرداً ، وفي هذا الخطاب ينهاهما سبحانه عن أكل ثمار شجرة معينة معبراً عن ذلك بقوله : ﴿ ولا تقربا هذه الشجرة ﴾ ، وذلك أبلغ وأكثر تأكيداً لتحريم هذه الثمار ، فالنهى هنا جاء حتى عن الاقتراب من الشجرة ، وتظهر العظة لهما والتحذير بقوله تعالى : ﴿ فتكونا من الظالمين ﴾ . وقد عرفت لفظة "الظالمين" لما في ذلك من قوة في الإشارة إلى ظلمهم والتحذير منهم .

ويتكرر الخطاب مرة أخرى في قوله تعالى : ﴿ فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ (٣) . والحديث هنا عن سيدنا آدم -عليه السلام- إذ عجل ببشارة التوبة ، دون ما يوهم العتاب ، وذلك مراعاة لسيدنا آدم -عليه السلام- وهذا من شأنه أن يشعره بما اقترف ، وأن يتجنب ما نهى عنه فيما بعد ، ففي هذا الخطاب تأنيس له -عليه السلام- على ما قام به .

١. الألويسي ، أبو الفضل شهاب الدين : روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ، إدارة الطباعة

المنيرية-بيروت ، ج ١ ، ص ٢٢٧ .

٢. آية ٣٥ من سورة البقرة

٣. آية ٣٧ من سورة البقرة

وإذا تأملنا هذا الخطاب نلاحظ أسلوبه البليغ في تبشيره بالتوبة ، ثم قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ ، وفي ذلك تطمين للمؤمنين ، وقد جاء بالتواب للدلالة على فتح باب التوبة للمؤمنين جميعاً ، وهذا يدل على بلاغة الأسلوب القرآني ، واختياره للألفاظ بحيث تؤدي الغرض المطلوب بأساليب بلاغية متنوعة . وفي قوله : ﴿مَنْ رَبُّهُ﴾ تشریف لسيدنا آدم بإضافته إلى الربوبية .

ويأتي الخطاب التالي ليتحدث عن نبي آخر في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾^(١) ، ويبدأ الخطاب بآتينا ، والإتيان لا يستعمل إلا في الشيء العظيم ، وفي هذا تشریف وتعظيم لسيدنا موسى -عليه السلام- وقد جاء موسى في الخطاب باسمه مجرداً كما هو الحال مع آدم -عليه السلام- . وفي قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ رجاء "فَذِكْرُ حَرْفِ الرَّجَاءِ دُونَ حَرْفِ التَّعْلِيلِ مِنْ بَدِيعِ الْبَلَاغَةِ فَتَفْسِيرُ لَعَلْ بِمَعْنَى لَكِي يَفِيَتْ هَذِهِ الْخُصُوصِيَّةُ"^(٢) ، وفي ذلك حنو وشفقة على المؤمنين، فهو يرجو لهم الهداية رافة بهم ، فأسلوب الخطاب يتميز بين الرسل وأقوامهم في دعوتهم إلى الإيمان إذ لا فظاظة ولا إكراه ، وإنما ملاطفة وتأنيس وإشفاق .

ويختلف الخطاب التالي ، فهو على لسان سيدنا موسى -عليه السلام- إلى قومه في قوله تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾^(٣) . ويبدأ الخطاب بتأنيس سيدنا موسى -عليه السلام- لقومه ، فهو يطلب إليهم أن يتوبوا ويستغفروا ؛ رافة بحالهم ، ثم يبشرهم بأن الله تاب عليهم ، ولعظم جرمهم وإشراكهم ، فهم في مقام المنكر أو الشاك بالتوبة ، لذلك جاء الخطاب بحرف التوكيد (إن) ليناسب الشك الذي في نفوسهم نتيجة إشراكهم وجحودهم . وهذا من صنوف البلاغة ، حيث يراعي الخبر حالة المخبر من إنكار أو شك .

١. آية ٥٣ من سورة البقرة

٢. ابن عاشور ، محمد الطاهر : التحرير والتنوير ، ج ١ ، ص ٥٠١

٣. آية ٥٤ من سورة البقرة

ويتوالى الخطاب لسيدنا موسى -عليه السلام- في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعَثُّوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ (١) .

من خلال هذا الخطاب نستشف مخاطبة الرسل لأقوامهم ، حيث نلمس حرصه -عليه السلام- على قومه في طلب السقيا لهم . كما نلاحظ استخدام أسلوب الالتفات من الماضي إلى المضارع ثم إلى الماضي ، واستخدام الأمر والنهي كل ذلك من خلال السياق نفسه . وهذه المنّة عظيمة ، فقد أضاف الرزق إلى الله سبحانه وتعالى . كما أنه " في التصريح بذكر الأرض ﴿وَلَا تَعَثُّوا فِي الْأَرْضِ﴾ مبالغة في تقييح الفساد وقوله ﴿مُفْسِدِينَ﴾ حال مؤكدة ووجه فصاحة هذا الأسلوب أن المتكلم قد تشتت عنايته بأن يجعل الأمر أو النهي لا يحوم حوله لبس أو شك ، ومن مظاهر هذه العناية التوكيد فقوله ﴿مُفْسِدِينَ﴾ يكسو النهي عن الفساد قوة ، ويجعله بعيداً من أن يُغفل عنه أو يُنسى " (٢) ، كما نلاحظ من خلال هذا السياق الملاطفة التي يحملها موسى -عليه السلام- لقومه ، وطريقة دعوته لهم .

ويتوالى خطاب سيدنا موسى -عليه السلام- بألوان مختلفة ، ففي قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقْرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ (٣) .

فسيدنا موسى -عليه السلام- يبدأ خطابه بقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقْرَةً ﴾ ، فيأتي بالتوكيد في بداية خطابه ، مراعاة لإنكارهم الشديد . ويمتاز هذا الخطاب بأنه حوار بين موسى -عليه السلام- وقومه ، وفي طلبه منهم ذبح البقرة نلاحظ اللين والملاطفة في الخطاب؛ حتى يتقبلوا ما يأمرهم به ، وحتى لا يجدوا غضاضة في ذلك . ولكننا لا نلبث أن نرى الفرق

١. آية ٦٠ من سورة البقرة

٢. الصابوني ، محمد علي: صفوة التفسير ، ج ١ ، ص ٦٣

٣. آية ٦٧ من سورة البقرة

في مخاطبتهم له بقولهم: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزْوَاً﴾، وهذا دليل على جهلهم بأدب الخطاب، ولكنه يرد عليهم بقوله: ﴿أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾، فهو لم يرد تجريحهم، لذلك لم يصفهم بالجهل وإنما عبّر عن ذلك بنفي الجهالة عن نفسه. فهذا الخطاب يتضمن مستويين مختلفين: خطابه مع قومه -عليه السلام- من جهة، وخطابهم معه من جهة أخرى.

ويأتي الخطاب التالي على لسان سيدنا محمد -صلى الله عليه وسلم- متحدياً الكفار وراداً عليهم في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾^(١)، وجاء الخطاب هنا رداً على تقولات الكفار أن الجنة لا يدخلها إلا من كان هوداً أو نصارى، وقوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ تشكيكاً في صدقهم، وتأكيداً على عدم التزامهم بما أمرهم به خوفاً وجزعاً. ويبدأ الخطاب بقوله تعالى: ﴿قُلْ﴾ وهي لفظة مستخدمة بكثرة في القرآن، يردُّ فيها الرسول -صلى الله عليه وسلم- على تساؤلات المؤمنين فيما يخص دينهم، ولكن هذا الرد من الله عز وجل بواسطة -عليه السلام- شريف وتعظيم له.

ويأتي الخطاب التالي ليكمل الخطاب السابق في قوله تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ﴾^(٢)، مبيناً له سبحانه وتعالى صفات المنافقين. ويبدأ الخبر مؤكداً؛ لبيان مدى ضلال هؤلاء القوم، وتأكيداً على أن الرسول -صلى الله عليه وسلم- غير مسؤول عنهم، فما عليه إلا دعوتهم إلى الإيمان، وفي هذا تأنيس ومواساة له -صلى الله عليه وسلم-.

وتتوالى السياقات في الرد على هؤلاء الكفار في قوله تعالى مخاطباً سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾^(٣).

١. آية ٩٤ من سورة البقرة

٢. بعض الآيات ٩٦ من سورة البقرة

٣. آية ٩٧ من سورة البقرة

وجاء الخطاب هنا ليؤكد أن القرآن منزل على سيدنا محمد -صلى الله عليه وسلم- بواسطة جبريل عليه السلام ، وقد تم تأكيد الخبر بحرف التوكيد (إن) ، "والإتيان بحرف التوكيد في قوله: ﴿فإنه نزله﴾ لأنهم منكرون ذلك" (١) . وهذا من الأساليب البلاغية ، إذ توضع حالة المخاطبين بعين الاعتبار ، فعلى قدر إنكارهم يأتي الخبر مؤكداً ، ثم يأتي الخطاب مطمئناً للرسول -عليه السلام- وللمؤمنين ، فهذا الكتاب كتاب هدى وبشرى لهم ، وقد تم تقديم الهدى على البشرى ؛ لأن البشرى لا تكون إلا لمن اتبع طريق الهداية .

ويأتي الخطاب التالي ليكمل الفكرة نفسها التي وردت سابقاً في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ﴾ (٢) ، ويأتي الخطاب مصدراً بلام القسم ، "وفي الانتقال إلى خطاب النبي صلى الله عليه وسلم إقبال عليه وتسليية له" (٣) . وقد جاءت الملاطفة والمواساة للرسول بخطاب يلائم الغرض الذي جاء من أجله . وقد وصف الكفار بالفاسقين زيادة في تشنيعهم وتقييح صورتهم .

وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْئَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾ (٤) ، يأتي الخطاب لتأكيد الرسالة مع الإشارة إلى علو مقامه ورفعة شأنه . وقد كُلف بحمل البشائر الطيبة للمؤمنين . وقد تم تقديم بشير على نذير ، فبدأ بالبشرى للمؤمنين ، ثم عطف عليها نذيراً للناس كافة ، "والآية اعتراض لتسليية الرسول صلى الله عليه وسلم لأنه كان يهتم ويضيق صدره لإصرارهم على الكفر" (٥) ، فهو غير مسؤول عن كفرهم . "وجيء بالمسند إليه ضمير الجلالة تشريفاً للنبي صلى الله عليه وسلم يعز الحضور لمقام التكلم مع الخالق تعالى وتقديسه، كأن الله يشافهه بهذا الكلام دون واسطة ، فلذا لم يقل: إن الله أرسلك" (٦) . ويختتم السياق بقوله: ﴿أصحاب الجحيم﴾ تقريباً للكفار ، ويوصفهم

١. ابن عاشور ، محمد الطاهر : التحرير والتنوير ، ج ١ ، ص ٦٢٢ .

٢. آية ٩٩ من سورة البقرة .

٣. ابن عاشور ، محمد الطاهر : السابق ، ج ١ ، ص ٦٢٤ .

٤. آية ١١٩ من سورة البقرة .

٥. الألويسي ، أبو الفضل : روح المعاني ، ج ١ ، ص ٣٧٠

٦. ابن عاشور ، محمد الطاهر: السابق ، ج ١ ، ص ٦٩١ .

أصحاب الجحيم يرسم أمامنا صورة مزرية مؤلمة لهؤلاء الكفار .

وتتوالى خطابات الرسول -صلى الله عليه وسلم- بلون مختلف ، إذ ينتقل من خطاب التأنيس والتسليية إلى خطاب التينيس في قوله تعالى : ﴿ وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَىٰ اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنَّ آتِبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾^(١) وجاء الخطاب هنا محذراً للرسول -صلى الله عليه وسلم- من هؤلاء القوم ، وقد بدأ الخطاب بالنفي بلن ، التي تفيد نفي المستقبل ، وهذا دليل على استحالة رضى اليهود والنصارى عنه عليه الصلاة والسلام ، ثم يأتي فعل الأمر "قل" رداً عليهم . وينتهي الخطاب بقوله تعالى : ﴿ وَلَئِنَّ آتِبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ ، والخطاب هنا موجه للرسول صلى الله عليه وسلم في ظاهره ، وللمؤمنين جميعاً في حقيقته . وكثيراً ما يلجأ القرآن الكريم إلى هذا الأسلوب البلاغي في الخطاب ، فيكون الظاهر مخاطباً معيناً ، والمقصود مخاطب آخر . وقوله : ﴿ وَلَئِنَّ آتِبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ ﴾ "من باب التهيج والإلهاب"^(٢) . كما نلاحظ في رد الرسول -صلى الله عليه وسلم- على الكفار إضافة الهدى إلى الله سبحانه وتعالى وهذا "أبلغ وجه لإضافة الهدى إليه تعالى وتأكيد به (إن) وإعادة الهدى في الخبر"^(٣) .

وينتقل السياق من خطاب سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم إلى خطاب سيدنا إبراهيم -عليه السلام- ، وهنا نجد التكليف في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾^(٤) .

في هذا الخطاب تم تقديم إبراهيم تعظيماً له إذ أضيف لفظ الجلالة (رب) إلى اسمه تشريراً لاسمه -عليه السلام- كما نلاحظ استخدام أسلوب الالتفات من الماضي إلى المضارع لا سيما وأن الخطاب احتل الحوار. وقد امتازت المحاور بآداب الخطاب على لسان إبراهيم -

١. آية ١٢٠ من سورة البقرة .

٢. الصابوني ، محمد علي: صفوة التفاسير ، ج ١، ص ٩٢

٣. الأوسى ، أبو الفضل : روح المعاني ، ج ١، ص ٣٧٢

٤. آية ١٢٤ من سورة البقرة

عليه السلام-، ويتعرض الخطاب في النهاية إلى زجر وترهيب الكفار الذين وصفهم بالظالمين تعبيراً عن مدى كفرهم ، وتغييراً منهم .

ويتجه الخطاب التالي إلى إبراهيم وإسماعيل معاً في قوله تعالى: ﴿وَعَهَدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾^(١) . وهو خطاب تكليف لهما بتطهير الكعبة التي عبر عنها بقوله ﴿بَيْتِي﴾ ، وإضافة البيت إلى ضمير الجلالة ﴿وطهر بيتي﴾ للتشريف والتعظيم^(٢) . كما نلاحظ أنه جاء بجمعين في سياق واحد ، حيث جمع الطائفين والعاكفين جمع مذكر سالماً ، وجمع الركع السجود جمع تكسير ، تفنناً في الخطاب ، باستخدام أساليب البلاغة المتنوعة .

وينعكس الخطاب في السياق التالي ، فهو موجه من سيدنا إبراهيم عليه السلام على سبيل الدعاء لله عز وجل في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِلِئهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾^(٣) .

وهذا لون خطابي آخر يمتاز بالتضرع إلى الله ورسوالة ، ونلاحظ أن دعاء إبراهيم -عليه السلام- فيه الاستكانة والخضوع ، فهو موجه إلى المولى عز وجل ، وهنا يظهر أدب مخاطبة الرسل لله سبحانه وتعالى . "وكان النداء بلفظ الرب مضافاً لما في ذلك من التلطف بالسؤال والنداء بالوصف الدال على قبول السائل، وإجابة ضراعتة"^(٤)، ولم يكن الدعاء عاماً، وإنما خص به المؤمنين دون الكافرين ، ترغيباً للكافرين بالايامن . ثم يتحول الخطاب مرة أخرى إلى زجر الكفار وترهيبهم في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ وهذه دعوة صريحة للابتعاد عن الكفر .

١. بعض الآية ١٢٥ من سورة البقرة

٢. الصابوني ، محمد علي : صفوة التفاسير، ج١، ص٩٥

٣. آية ١٢٦ من سورة البقرة

٤. الألويسي ، أبو الفضل : روح المعاني ، ج١، ص٣٨٢

وفي الخطاب التالي يتوجه إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام بالدعاء إلى الله سبحانه في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ * رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾^(١) .

وأول ما يميز الخطاب هنا استخدام أسلوب الالتفات ، وتكرار النداء في الدعاء ، "وفائدة تكرير النداء بقوله "ربنا" إظهار الضراعة إلى الله تعالى وإظهار أن كل دعوى من هاته الدعوات مقصودة بالذات، ولذلك لم يكرر النداء إلا عند الانتقال من دعوة إلى أخرى"^(٢). ويمتاز الخطاب بالخشوع والخضوع لله سبحانه وتعالى، وفيه التوسل والتضرع من خلال الدعاء . ويبدأ الخطاب بالمضارع رغم أن هذه الحادثة قديمة جداً ، والسبب هو استحضارها وكأنها تحدث الآن ، لذلك جاء الخطاب بالمضارع .

ويتلون الخطاب مرة أخرى ، فهو على لسان إبراهيم ويعقوب عليهما السلام إلى أبنائهما نصحاً وإرشاداً ، والخطاب بين المتساويين يكون خطاب التماس كما هو في قوله تعالى : ﴿ وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾^(٣) . والخطاب هنا في ظاهره لأبنائهما فقط ، ولكن المقصود هم المؤمنون جميعاً ، وقد تم تأكيد الخبر بأكثر من أداة تأكيد واحدة ؛ وذلك للتأكيد على أهمية هذه الوصية ، وضرورة التقيد بها . ونلاحظ من خلال السياقات السابقة استخدام الأسلوب الخبري في الخطاب .

ثم يأتي الخطاب مرة أخرى للرسول صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَتَحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ ﴾^(٤) ليرد

١. الآيات ١٢٧-١٢٨-١٢٩ من سورة البقرة .

٢. ابن عاشور ، محمد الطاهر: التحرير والتنوير ، ج ١ ، ص ٧١٩ .

٣. آية ١٣٢ من سورة البقرة .

٤. آية ١٣٩ من سورة البقرة .

به على الكفار ، وقد بدأ الخطاب بالاستفهام الإنكاري ، والهدف منه توبيخهم على أعمالهم . وهذا الخطاب مليء بالموعظة والتحذير للمؤمنين . وينتهي الخطاب بجملة خبرية : ﴿ وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ ﴾ والهدف أنها تفيد دوام إخلاص النبي والمؤمنين لله عز وجل ، وقد جاءت اسمية لتفيد الإخلاص المطلق .

ويتوالى الخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم ، وهو أيضاً خطاب تكليف ، في قوله تعالى: ﴿ قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ﴾^(١) . وقد خص سبحانه الرسول الكريم في بداية الخطاب تعظيماً له ، وحرصاً على الالتزام بهذا الأمر الذي كلف به نبيهم أولاً ، لبيان مدى أهميته ، ثم عمم الخطاب للمؤمنين جميعاً؛ تأكيداً للحكم وتصريحاً بعمومه . وقوله تعالى : ﴿ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ ﴾ يكشف لنا نفسة الرسول -صلى الله عليه وسلم- وما يواكبها من اضطراب وقلق وحيرة ، فهذه العبارة تجعلنا نتخيل الحالة التي كان عليها سيدنا محمد -صلى الله عليه وسلم- .

ويأتي الخطاب التالي لتبئس الرسول -صلى الله عليه وسلم- من إمكانية استجابة الكافرين لدعوته في قوله تعالى : ﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴾^(٢) .

وهو خطاب تنزيه للرسول -صلى الله عليه وسلم- من اتباعه الكفار في قوله : ﴿ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ﴾ وقوله: ﴿ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ﴾ هذه الجملة أبلغ في النفس من قوله: ﴿ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ ﴾ لأنها جملة اسمية أولاً ولتأكيد نفيها بالباء ثانياً^(٣) . ثم يختتم الخطاب بتحذير الرسول -صلى الله عليه وسلم- في قوله تعالى: ﴿ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ ، وقد جاء الخبر مؤكداً ، لبيان شدة التحذير من اتباع النبي ملتهم أولاً ، وللمؤمنين كافة بعد ذلك .

١. بعض الآية ١٤٤ من سورة البقرة .

٢. آية ١٤٥ من سورة البقرة .

٣. الصابوني ، محمد علي : صفوة التفسير ، ج١ ، ص ١٠٥ .

فظاهر الخطاب هو التحذير للرسول -صلى الله عليه وسلم- ، وفي حقيقته تحذير للمؤمنين من اتباع الكفار .

ويعود الخطاب مرة أخرى للرسول -صلى الله عليه وسلم- في ظاهره وللمؤمنين في حقيقته ، في قوله تعالى : ﴿ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُؤْمِتِينَ ﴾^(١) ، والمقصود في خطاب النبي صلى الله عليه وسلم في قوله ﴿ وَلَئِنْ أَتَبَعْتَ ﴾ وقوله ﴿ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُؤْمِتِينَ ﴾ تحذير الأمة وهذه عادة القرآن في كل تحذير مهم ليكون خطاب النبي يمثل ذلك وهو أقرب الخلق إلى الله تعالى وأولاهم بكرامته^(٢) . فالملاحظ من خلال السياقين السابقين أن تحذير المؤمنين من الخروج عن تعاليم دينهم يأتي أولاً تحذيراً للرسول -صلى الله عليه وسلم- ، وهو المنزه عن الوقوع في المعاصي ؛ لبيان عظم خطورة ذلك الأمر ، فالهدف هو ردع المؤمنين عن اتباع الكفار ، وعندما يبدأ ذلك بالرسول -صلى الله عليه وسلم- يدرك المؤمنون أهمية هذا الأمر .

ويتوالى الخطاب في ظاهره للرسول -صلى الله عليه وسلم- ، وفي حقيقته للمؤمنين في قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾^(٣) . وقد جاء الخطاب لتأكيد بيان قبلة المؤمنين ، حثاً لهم على التقيد بما أمرهم به الله سبحانه . وهذا الخطاب تكرر لقوله تعالى : ﴿ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ﴾^(٤) . والتكرار من أساليب القرآن الكريم في التأكيد على المعنى وإثباته في ذهن المخاطب .

ويأتي الخطاب التالي بالبشرى للمؤمنين عن طريق الرسول -صلى الله عليه وسلم- ، في قوله تعالى : ﴿ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾^(٥) ، وقد جاء الخطاب "بطريقة التبشير على لسان الرسول تكريماً لشأنه ، وزيادة

١. آية ١٤٧ من سورة البقرة .

٢. ابن عاشور ، محمد الطاهر : التحرير والتنوير ، ج ٢ ، ص ٤٢ .

٣. بعض الآية ١٥٠ من سورة البقرة .

٤. بعض الآية ١٤٤ من سورة البقرة .

٥. بعض الآية ١٥٥ والآية ١٥٦ من سورة البقرة .

في تعلق المؤمنين به بحيث تحصل خيراتهم بواسطته، فلذلك كان من لطائف القرآن إسناد البلوى إلى الله بدون واسطة الرسول، وإسناد البشارة بالخير الآتي من قبل الله إلى الرسول^(١). وينتهي الخطاب بقول المؤمنين: "إنا لله وإنا إليه راجعون"، جملة اسمية لتصلح لحال المؤمنين في كل زمان ومكان، ولا تقتصر على الزمن الماضي، وهذا من بلاغة اختيار الجمل الملائمة للتعبير عن الغرض المطلوب.

ويختلف الأسلوب الخطابي في السياق التالي في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾^(٢)، فالمؤمنون يسألون الرسول عن أمور دينهم، ويقوم الرسول -صلى الله عليه وسلم- بالرد عليهم، ويتسم الخطاب بأنه خطاب تشریف للرسول "ليحصل من خلال ذلك تعظيم شأن النبي -صلى الله عليه وسلم- بأنه يسأله المسلمون عن امر الله تعالى"^(٣). وقد جاء الخطاب هنا مغايراً في رد الرسول -صلى الله عليه وسلم- على المؤمنين فمن العادة ان يأتي الخطاب بلفظة "قل"، "فإن قيل: كيف جاء: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾، وعادة السؤال يجيء جوابه في القرآن ب"قل"... قيل: حذف للإشارة إلى أن العبد في حالة الدعاء، مستغن عن الوسطة، وهو دليل على أنه اشرف المقامات"^(٤).

وتتوالى الخطابات التي تجيء رداً على سؤال المؤمنين، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾^(٥)، وفي مثل هذه الخطابات يأتي السؤال والجواب عن طريق الرسول -صلى الله عليه وسلم-، تشريفاً له وإعلاءً لكلمته بين المؤمنين^(٦). وقد "ابتدنت الآية ب"يسألونك" لأن هنالك سؤالاً واقعاً عن أمر الأهلة، وجميع الآيات التي افتتحت ب"يسألونك" هي متضمنة لأحكام وقع السؤال عنها فيكون موقعها في القرآن مع آيات تناسبها نزلت في وقتها أو قرنت بها"^(٧). وقد سألوا الرسول -صلى الله

١. ابن عاشور، محمد الطاهر: التحرير والتنوير، ج ٢، ص ٥٧.

٢. آية ١٨٦ من سورة البقرة.

٣. ابن عاشور، محمد الطاهر: السابق، ج ٢، ص ١٧٨.

٤. الزركشي، بدر الدين محمد بن عبدالله: البرهان في علوم القرآن، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم،

دار إحياء الكتب العربية، ط ١٩٥٨م، ج ٤، ص ٥٤.

٥. بعض الآية ١٨٩ من سورة البقرة.

٦. انظر الآيات / ٢١٧، ٢١٩، ٢٢٠، ٢٢٢ فجميعها تبدأ بيسألونك وتتعلق بأمور الدين.

٧. ابن عاشور، محمد الطاهر: السابق، ج ٣، ص ١٩٣.

عليه وسلم- عن الأهله لماذا تبدو صغيرة ثم تكبر ثم تعود صغيرة مرة أخرى . "والأصل في الجواب أن يكون مطابقاً للسؤال ، وقد يعدل في الجواب عما يقتضيه السؤال تنبيهاً على أنه كان من حق السؤال أن يكون كذلك ، وهو المسمى بأسلوب الحكيم ... تنبيهاً على أن الأهم السؤال عن ذلك لا ما سألوا عنه " (١) .

ويأتي الخطاب التالي محذراً الرسول والمؤمنين من المنافقين في قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴾ (٢) ، والتحذير واضح في هذا الخطاب ، ويبلغ الخطاب حدته في قوله تعالى: " وهو ألد الخصام " ، لبيان مدى خطورة المنافقين على المجتمع الإسلامي كله .

ويشمل الخطاب التالي لوتين مختلفين في قوله تعالى : ﴿ سَلِّ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمَا آتَيْنَاهُم مِّنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ (٣) . يبدأ السياق بخطاب الرسول - صلى الله عليه وسلم - ، هم يتحول عن بني إسرائيل إلى الوعيد والتهديد ، لبيان مصيرهم وعظم إثمهم . وقد بدأ الخطاب بقوله تعالى : "سل بني إسرائيل " ، "والمراد بهذا السؤال تقريرهم وتوبيخهم على طغيانهم وجحودهم الحق بعد وضوح الآيات لا أن يجيبوا فيعلم جوابهم " (٤) .

وتظهر ثنائية الخطاب واضحة في قوله تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِللَّذِينَ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴾ (٥) . وهذا الأسلوب أيضاً من أسلوب الحكيم ، حيث يتجه الجواب إلى ما هو أهم . والقصد من الخطاب هنا بيان أمور الإنفاق للمؤمنين ، فالمقام هنا مقام ترغيب بالإنفاق وحث عليه ، والإنفاق لا يكون إلا من المؤمنين . وجعل الرسول واسطة بين المولى عز وجل والمؤمنين شريفاً له ، وإعلاء لمكانته بين المسلمين .

١. القطن ، مناع: مباحث في علوم القرآن ، مؤسسة الرسالة ، ط ١٢ ، ص ٢٠٥ .

٢. آية ٢٠٤ من سورة البقرة .

٣. آية ٢١١ من سورة البقرة .

٤. الألويسي ، أبو الفضل : روح المعاني ، ج ٢ ، ص ٩٩ .

٥. آية ٢١٥ من سورة البقرة .

فالفرق واضح بين السياقين الاخيرين ، فهو في الأول زجر وتقريع لبني إسرائيل ، وفي الثاني ثناء وتقدير للمؤمنين .

وفي الخطاب التالي يُكَلِّفُ الرسول - صلى الله عليه وسلم - بحمل البشرى للمؤمنين في قوله تعالى : ﴿ وَقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾^(١) ، فالخطاب في بداية السياق موجه إلى المؤمنين ثم يلتفت إلى خطاب الرسول واختصاصه بالبشرى تشريفاً له وتعظيماً لشأنه ، ومن شأن ذلك أن يحبب المسلمين به .

وَيُخَاطَبُ الرسول - صلى الله عليه وسلم - في السياق التالي تأكيداً على إرساله في قوله تعالى : ﴿ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾^(٢) ، "وقوله "وإنك لمن المرسلين" خطاب للرسول صلى الله عليه وسلم : تنويهاً بشأنه ، وتثبيتاً لقلبه ، وتعريضاً بالمنكرين رسالته ، وتأكيد الجملة بأن الاهتمام بهذا الخبر " (٣) . والمتأمل في سيرة الأنبياء -عليهم أفضل الصلاة والسلام - يطلع على خلق عالٍ رفيع وأدبٍ جم في تعاملهم مع الناس ، وفي دعوتهم إياهم ، ومن هذه الآداب: تقديم أنفسهم لأقوامهم على انهم رسل من الله ، يرجون لهم الخير ، كما هو الحال في السياق السابق .

ويأتي الخطاب بلون مغاير في السياق التالي ، فهو على لسان سيدنا إبراهيم -عليه السلام ، في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أُولَئِمُ تُوْبِنُ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ﴾^(٤) . ونلاحظ خشوع وقنوت سيدنا إبراهيم -عليه السلام - في حديثه مع المولى عز وجل ، كما نلاحظ في المقابل رافة المولى سبحانه بنبيه ، وهدوء الحوار الذي دار بينهما .

١. بعض الآية ٢٢٣ من سورة البقرة .

٢. آية ٢٥٢ من سورة البقرة .

٣. ابن عاشور ، محمد الطاهر : التحرير والتنوير ، ج ٢ ، ص ٥٠٣ .

٤. بعض الآية ٢٦٠ من سورة البقرة .

وتختتم الخطابات الموجهة للرسول بقوله تعالى مخاطباً سيدنا محمداً: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾^(١) ، وفي هذا الخطاب تأنيس للرسول الكريم ، وفيه تحذير شديد للهجة للكفار ، مع إعطائهم الأمل في الهداية . " والجملة معترضة جيء بها على طريق تلوين الخطاب وتوجيهه إلى سيد المخاطبين صلى الله عليه وسلم مع الالتفات إلى الغيبة فيما بين الخطابات المتعلقة بأولئك المكلفين مبالغة في حملهم على الامتثال " ^(٢) .

وأول ما نلاحظه في خطاب الرسل أن الخطاب لسيدنا محمد -صلى الله عليه وسلم- امتاز بالتشريف والتعظيم ، فلم يرد خطابه مجرداً دون واسطة ، وإنما خوطب بالنبوة والرسالة وحمل البشائر للمؤمنين ، كما كان الواسطة في الخطاب بين المولى عز وجل وبين المؤمنين عن طريق سؤال المؤمنين له في الكثير من أمور دينهم ، في حين خوطب باقي الرسل بأسمائهم .

وقد امتاز الخطاب الموجه للرسول باستخدام الأسلوب الخبري في التعبير عن المعاني المطلوبة ، لما في هذه الجمل من تكليف للمسلمين بأمور دينهم . وكان خطاب الرسل الموجه إلى الكفار بجمل اسمية مؤكدة بإحدى أدوات التوكيد ، أو بأكثر من أداة واحدة ، وذلك حسب إنكارهم للخبر الذي تم تأكيده ، ولما تمتاز به هذه الجمل من الاستمرارية ، فهي تصلح للرد على الكفار في كل زمان ومكان .

أما عن الموضوعات التي دار حولها الخطاب فقد كانت في الغالب ؛ لبيان أمور الدين الإسلامي للمؤمنين عن طريق الرد عليهم من قبل الرسول -صلى الله عليه وسلم- وهذه المواضيع الرئيسية في هذا الخطاب . وقد تفرعت مواضيع أخرى منها : الزجر والتهديد للكفار على كفرهم من جهة ، وحمل البشائر الطيبة للمؤمنين من جهة أخرى .

١. بعض الآية ٢٧٢ من سورة البقرة .

٢. الألويسي، أبو الفضل : روح المعاني ، ج٣ ، ص٤٥.

ب- خطاب الناس :

لما كان مقصد الخطاب القرآني تفهيم المكلفين ما لهم وما عليهم مما فيه صلاح دينهم ودنياهم وآخرتهم ، ولما كانت الأفهام متفاوتة ، والعقول متباينة ، فقد راعى الخطاب القرآني هذا التفاوت والتباين ، فجاءت عبارات القرآن سهلة ميسرة ، لا تستعصي على فهم الإنسان العادي ، إذا نظر إليها وتدبرها .

ويستطيع كل قارئ للقرآن أن يأخذ منه نصيبه من الفهم والاستيعاب بقدر ما ييسر الله له من وسائل المعرفة والإطلاع ، ويقدر ما ينشرح له صدره لاستقبال أنواره وبركاته .

ومن سمات الخطاب القرآني البساطة وعدم التعقيد والبعد عن التكلف ، مثلما هي سمات الشريعة الإسلامية والعقيدة الإسلامية على حد سواء .

ويخاطب الله سبحانه وتعالى الناس في سورة البقرة بأساليب وألوان خطابية متنوعة. وأول هذه الخطابات في قوله تعالى : ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾^(١) . ويبدأ الخطاب باسم الإشارة (ذلك) تعظيماً لشأن هذا الكتاب . وقد امتاز الخطاب بالسهولة والبعد عن التكلف ، ليناسب أفهام جميع الناس ، وليناسب الغرض أيضاً ، فقد جاء لبيان أن القرآن هدى لمن اتقى الله سبحانه .

ثم يتلون الخطاب القرآني في قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾^(٢) . فيخاطبهم باسم الإنسانية التي ينتسبون إليها ، وهي وصف جامع لكل إنسان ، وفي هذا إشارة إلى أن الناس أمام الله سواء ، فهم مخلوقون من نفس واحدة ، وإنما يأتي التفاضل بينهم بالتقوى .

١ . الأيتان ٢ - ٣ من سورة البقرة .

٢ . الأيتان ٢١-٢٢ من سورة البقرة .

وقد "أقبل عليهم بالخطاب على سبيل الإلتفات ، هزأً للسامع ، وتثبيطاً له ، واهتماماً بأمر العبادة ، وتفخيماً لسانها ، وإنما كثر النداء على هذه الطريقة في القرآن لاستقلاله بأوجه من التأكيد وكل ما نادى الله له عباده من حيث إنها أمور عظام من حقها أن يتفطنوا لها ويقبلوا بقلوبهم عليها وأكثرهم عنها غافلون حقيق بأن يُنادى له بالأكّد الأبلغ" (١) .

ونلاحظ بلاغة الأسلوب القرآني في خطاب الناس ، فهو يستعرض أمامهم بعض نعمه عليهم ، هذه النعم التي سخرها لخدمة الإنسان ، ثم يطلب إليهم الإقرار بوحدانيته ، معبراً عن ذلك بقوله : ﴿ فلا تجعلوا لله أنداداً ﴾ ، فهو ينهاهم سبحانه عن الإيمان بغيره ، وهذا من شأنه أن يجعلهم يقرون بوحدانيته . فهناك تسلسلٌ منطقيّ في عرض الأفكار ، يجعلهم يتفكرون في هذه النعم ليصلوا إلى خالقهم ، وفي ذلك ملاطفة جميلة بذكر ما لله عليهم من الحقوق ومن الإنعام فذكر أولاً ربوبيته لهم ، ثم ذكر خلقته لهم ولآياتهم لأن الخالق يستحق أن يُعبد ثم ذكر ما أنعم الله به عليهم ؛ لأن المنعم يستحق أن يُعبد ويُشكر ، وانظر قوله: جعل لكم . ورزقاً لكم : يدلّك على ذلك لتخصيصه ذلك بهم في ملاطفة وخطاب بديع" (٢) .

ثم يأتي الخطاب التالي متحدياً الناس جميعهم بالقرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ (٣) . " ويبدأ هذا التحدي بلفتة لها قيمتها في هذا المجال .. يصف الرسول - صلى الله عليه وسلم - بالعبودية لله : " وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا" .. ولهذا الوصف في هذا الموضع دلالات متنوعة متكاملة : فهو أولاً تشریف للنبي وتقريب بإضافة عبوديته لله تعالى ؛ دلالة على أن مقام العبودية لله هو أسمى مقام يدعى إليه بشر ويدعى به كذلك . وهو ثانياً تقرير لمعنى العبودية ، في مقام دعوة الناس كافة إلى عبادة ربهم وحده ، واطراح الأنداد كلها من دونه" (٤) . وفي قوله تعالى ﴿ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ تشكيك بصدقهم

١. البيضاوي ، ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي : أنوار التنزيل وأسرار التأويل ، دار الجيل ، ج ١ ، ص ١٦ .

٢. الكلبى، محمد بن أحمد بن جزى، التسهيل لعلوم التنزيل، المكتبة التجارية، مصر، ١٣٥٥هـ، ط ١، ج ١، ص ٤٠ .

٣. الآيتان ٢٣-٢٤ من سورة البقرة .

٤. قطب ، سيد : في ظلال القرآن ، ج ١ ، ص ٥٣ .

٥٤٢٨٣٧

لأنه سبحانه يعلم أنهم كاذبون ، ولكنه لم يصفهم بالكاذبين ، وإنما عبّر عن ذلك بقوله : ﴿ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ ، وهذا من أدب الخطاب القرآني ، وفيه دعوة ومنهج للناس ليتبعوه في مخاطباتهم إقتداءً بالقرآن الكريم .

ويصل التحدي ذروته في قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ . فقد تم تقرير عجزهم بأسلوب خطابي مميز ، إذ أكد على هذا المعنى بقوله : ﴿ وَلَنْ تَفْعَلُوا ﴾ بما تمتاز به هذه العبارة من جرس شديد ولغة حادة ، " وقوله تعالى : ﴿ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا ﴾ ، جيء بـ ﴿ إِن ﴾ التي للشك وهو واجب ، دون ﴿ إِذ ﴾ التي للوجوب ، سوقاً للكلام على حسب حساباتهم أن معارضته فيها للتهكم^(١) ، ثم يعود الخطاب بشيء من الهدوء ليؤكد أن العذاب من نصيب الكافرين دون غيرهم ، وبوصف هذا العذاب يرتسم أمامنا مشهد مؤلم ، "مشهد النار التي تاكل الأحجار . ومشهد الناس الذين ترحمهم هذه الأحجار"^(٢) ، ولهذه الصورة أثرها المؤلم في النفوس ، وقد جاءت مؤلّمة منفرة ؛ ليعتبر الناس ويبتعدوا عن طريق الكفر والضلال .

ويوجه الخطاب التالي للناس مبيناً لهم حكمة الله سبحانه وتعالى في ضرب الأمثال في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةٌ فَمَّا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ ﴾^(٣) .

وقد جاء هذا الخطاب رداً على إنكار الكفار ضرب الله عز وجل الأمثال فيما هو حقير -في نظرهم - كالعنكبوت والبعوض ، فيأتي الرد جازماً بأن الله لا يستحيي أن يضرب مثلاً ما بالبعوض ، وهذا الرد في ظاهره للكفار ، وفي حقيقته للناس جميعاً مبيناً لهم سبحانه أن ذلك لا ينتقص من قدرته وعظمته شيئاً . ويبدأ الخطاب ببيان حال المؤمنين أولاً ثم حال

١. الزركشي ، بدر الدين : البرهان في علوم القرآن ، ج ٤ ، صص ٥٦-٥٧ .

٢. قطب ، سيد : في ظلال القرآن ، ج ١ ، ص ٥٥

٣. آية ٢٦ من سورة البقرة .

الكافرين ، "وتقديم بيان حال المؤمنين لشرفه"^(١) . وسؤال الكفار : "ماذا أراد الله بهذا مثلاً " لم يأت للاستفهام ، وإنما " لفظه الاستفهام ، ومعناه الاستبعاد والاستهزاء والتكذيب "^(٢) فقد استبعدوا أن يكون هذا المثل من الله سبحانه وتعالى ، ولكن المؤمنين صدقوه وأمنوا به . "ولم يقل سبحانه وأما الذين كفروا فلا يعلمون -ليقابل سابقه لما في هذا من المبالغة في ذمهم والتبويه بأحسن وجه على كمال جهلهم "^(٣) . ويختتم الخطاب بتهديد الكفار في قوله : ﴿ وما يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ ﴾ ، ووصفهم بالفاسقين زيادة في تحقيرهم وذمهم . وفي ذلك تحذير للناس جميعاً من السير في طريق الظلم والطغيان .

ثم يأتي الخطاب بشكل آخر مبيناً للناس دلائل قدرة الله سبحانه وتعالى في قوله : ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمَيِّتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾^(٤) .

يبدأ الخطاب بالاستفهام التوبيخي لكل من كفر بالله سبحانه وتعالى ، ثم يتدرج في خطابه للناس مبيناً قدرته العظيمة في خلقهم ، ثم يؤكد لهم أنه خلق الأرض وسخرها لهم ، فالغرض من خلق الانسان هو استخلافه في هذه الأرض . وفي هذا استدراج لهم ليتقبلوا ما يتضمنه الخطاب . فالخطاب يشتمل على أساليب بلاغية متنوعة ومتدرجة من التوبيخ إلى التقرير ، وهذه الألوان الخطابية المختلفة تتأسقت لتصل بالسامع إلى الغرض المطلوب ، وهو الإقرار بالخالق والإيمان به . "وهكذا في آية واحدة قصيرة يفتح سجل الحياة كلها ويطوى ، وتعرض في ومضة صورة البشرية في قبضة البارئ وفي هذا الاستعراض السريع يرسم ظل القدرة القادرة ، ويلقى في الحس احياءاته المؤثرة العميقة "^(٥) ، وهذا يدل على بلاغة الأسلوب القرآني في إيصال المعنى المطلوب بكلمات قليلة .

١.الألوسي، أبو الفضل : روح المعاني ، ج١، ص٢٠٧ .

٢.الكليبي ، محمد بن أحمد : التسهيل لعلوم التنزيل ، ج١، ص٤٢ .

٣.الألوسي، السابق ، ج١، ص٢٠٨ .

٤.الآيتان ٢٨-٢٩ من سورة البقرة .

٥.قطب ، سيد : في ظلال القرآن ، ج١، ص٦١ .

ويشتمل الخطاب التالي على الترغيب والترهيب في سياق واحد في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾^(١). وقد بدأ بالذين آمنوا تشريفاً وتعظيماً لهم ، والغرض من هذا الخطاب ترغيب الناس بالإيمان ، لذلك يبين لنا جزاء من يؤمن به سبحانه. وقد عبر عن ثوابهم بقوله : ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ . وقد أضافهم إلى الربوبية تشريفاً لهم أيضاً ، فقد تم تشريف المؤمنين في السياق نفسه مرتين . ثم يصف لنا حالهم بقوله : " ولا هم يحزنون " ، لتدل على النعيم الذي ينتظرهم ، وهو في المقابل يشمل التهديد والوعيد للكفار الَّذِينَ يُفْهَمَانِ من السياق نفسه . ونلاحظ أن ما يميز خطاب الناس أنه بلغة واضحة بسيطة لتلائم أفهام الناس على اختلافهم .

ويأتي الخطاب التالي مبيناً للناس قدرة الله سبحانه وتعالى وعظمته في قوله تعالى : ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾^(٢) . وهذه دعوة للناس كافة ليتفكروا ويتدبروا في قدرة الله العظيمة ، وهذا التدبر يدفعهم إلى خشية الله تعالى والإيمان به . ومما نلاحظه على خطاب الناس أنه يدعوهم دائماً إلى التفكير والتدبر مقدماً لهم الأدلة والبراهين .

ثم يأتي الخطاب ليقدم للناس فئتين متضادتين ، مبيناً مكانة كل منهما في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾^(٣) ، والهدف من هذا الخطاب إطلاع الناس على مصير كل من المؤمنين والكافرين ليختاروا لأنفسهم الفئة التي يريدون . وقد بدأ الخطاب بقوله تعالى : ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ﴾ ، والإتيان يكون في الشيء العظيم ، وهو هنا القرآن الكريم ، كما تم تقديم المؤمنين على الكافرين ، ترغيباً للناس بالإيمان ، وبياناً لمكانتهم عند الله عز وجل . وفي الوقت نفسه يأتي محذراً ومتوعداً الكافرين بوصفه لهم : ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ تنفيراً منهم ، وردعاً عن اتباع طريقهم .

١. آية ٦٢ من سورة البقرة

٢. آية ١١٧ من سورة البقرة

٣. آية ١٢١ من سورة البقرة

ويتلون الخطاب في السياق التالي ، فهو في ظاهره لبني اسرائيل ، وفي حقيقته للناس كافة ، في قوله تعالى : ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾^(١) . ويتضمن هذا الخطاب النصيحة للناس جميعاً بالعمل لأخرتهم ، وقد عبر عن يوم الحشر بقوله : ﴿ يَوْمًا ﴾ ، وقد جاءت نكرة للتعظيم والتحويل ، لما في هذا اليوم العظيم من أهوال وأمور عظيمة ، وهو في الوقت نفسه يحذرهم من هذا اليوم ، ويخص الكافرين بهذا التحذير الشديد في قوله تعالى : ﴿ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ ، ليتعظ الناس ويعتبروا . ونلاحظ هنا أن خطاب الناس امتاز بالنصيحة والإرشاد وبيان الطريق الصحيح الذي فيه سعادتهم في الدنيا والآخرة بأسلوب يمتاز بالملاطفة والهدوء ، ليلقى في أنفسهم تقبلاً .

ويتبعه خطاب آخر يبين للناس أن كلاً منهم محاسب بأعماله في قوله تعالى : ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾^(٢) . وقد بدأ الخطاب باسم الإشارة " تلك " لتعظيم هذه الأمة ، وهي أمة إبراهيم وبنيه -عليهم السلام- ، والمراد من هذا الخطاب " تخييب المخاطبين وقطع أطماعهم من الانتفاع بحسنات من مضى منهم ، وإنما أطلق -العمل- لإثبات الحكم بالطريق البرهاني في ضمن قضية كلية"^(٣) ، وهذه دعوة للناس ليعملوا لأخرتهم حتى يفوزوا بالأجر والثواب العظيم .

وتتوالى الخطابات التي تبين قدرته سبحانه وتعالى في قوله : ﴿ أَيَنْ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللهُ جَمِيعًا إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾^(٤) . وفي هذا الخطاب تحذير للناس جميعاً من أنه لا مفر من الله إلا إليه . مؤكداً على ذلك بقوله تعالى : ﴿ يَأْتِ بِكُمْ اللهُ جَمِيعًا ﴾ وهنا تتجلى قدرته سبحانه وتعالى ، ثم ينتهي الخطاب بجملة مؤكدة بـ " إن " ، لتتناسب الشك الذي عند البعض في قدرته تعالى على حشرهم جميعاً .

١. آية ١٢٣ من سورة البقرة

٢. آية ١٣٤ من سورة البقرة

٣. الألويسي ، أبو الفضل : روح المعاني ، ج ١ ، ص ٣٩٢

٤. بعض الآية ١٤٨ من سورة البقرة

ويأتي الخطاب التالي بشكل آخر ترغيباً للناس في الاستشهاد في سبيل الله ، مبيناً لهم مكانة الشهداء العظيمة عند الله عز وجل في قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أحيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾^(١) . وفي قوله : "سبيل الله" تشریف وتعظيم لهم بكونهم في سبيله سبحانه أولاً ، وبإضافتهم إليه ثانياً ، وهذه دعوة للناس بأسلوب الترغيب والإقناع في الاستشهاد في سبيله سبحانه وتعالى ، وإنما يبين لهم مكانة وفضل الشهداء ، دفعاً لهم ليفوزوا بشرف هؤلاء الشهداء .

وتظهر الثانية واضحة في الخطاب التالي الموجه للناس جميعاً في قوله تعالى : ﴿ إِنْ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ * إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُّوا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾^(٢) .

يبدأ الخطاب بالتوكيد ، ليبيّن مصير هذه الفئة من الناس تحذيراً منهم وتقريعاً لهم . وفي قوله : " يلعنهم الله " "التفات من ضمير المتكلم إلى الغيبة إذ الأصل "تلعنهم" ولكن في إظهار الاسم الجليل (يلعنهم الله) إلقاء الروعة والمهابة في القلب"^(٣) ، ويكرر اللعنة لهم زيادة في تقريعهم وتوبيخهم ، ثم يعطي هذا الخطاب الأمل لهذه الفئة من الناس بالتوبة الصادقة بقوله : " فأولئك أتوب عليهم وأنا التواب الرحيم " ، وهذا من رحمته سبحانه وتعالى بعباده ، فما زال الخيار بأيديهم ليرتدعوا عما هم فيه . وفي قوله : " وأنا التواب الرحيم " بعد قوله : " فأولئك أتوب عليهم " التفات من الغائب إلى المتكلم ، "والالتفات إلى المتكلم للافتتان مع ما فيه من الرمز إلى اختلاف فعلية السابق واللاحق"^(٤) .

١. آية ١٥٤ من سورة البقرة .

٢. الأيتان ١٥٩-١٦٠ من سورة البقرة .

٣. الصابوني ، محمد علي : صفوة التفاسير ، ج ١ ، ص ١٠٩ .

٤. الأوسى ، أبو الفضل : روح المعاني ، ج ٢ ، ص ٢٨ .

ويتبعه خطاب إلى الناس أيضاً مؤكداً وحدانيته سبحانه في قوله تعالى: ﴿وَالْهَكْمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾^(١). وقد ورد الخبر " خالياً من التأكيد تنزيلاً للمنكر منزلة غير المنكر ، وذلك لأن بين أيديهم من البراهين الساطعة والحجج القاطعة ما لو تأملوه لوجدوا فيه غاية الإقناع "^(٢) . وقد بدأ الخطاب بقوله : " إلهكم " وفي إضافتهم له تشريف لهم ، وهز لمسامعهم لما سيقال لهم بعد ذلك ، ليتفكروا ويتدبروا ، ثم ليقرؤا بوحدانيته سبحانه وتعالى ، "والخطاب بكاف الجمع لكل من يتأتى خطابه وقت نزول الآية أو بعده من كل قارئ للقرآن وسامع فالضمير عام ، والمقصود به ابتداء المشركون ، لأنهم جهلوا أن الإله لا يكون إلا واحداً "^(٣) . وهو يقر للناس هذه الوحدانية بأسلوب مقنع يدعو إلى التفكير والتدبر ، لا بالإكراه أو التعصب .

وبعد أن أكد سبحانه وتعالى في الخطاب السابق وحدانيته للناس عامة ، يأتي الخطاب التالي مبرهنات لهم هذه الوحدانية في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾^(٤) . ويبدأ الخطاب مؤكداً بحرف التوكيد "إن" زيادة في تأكيد هذه الوحدانية التي تم ذكرها في السياق السابق ، "وموقع هاته الآية عقب سابقتها موقع الحجة من الدعوى ، ذلك أن الله تعالى أعلن أن "الإله إله واحد لا إله غيره" وهي قضية من شأنها أن تتلقى بالإنكار من كثير من الناس ، فناسب إقامة الحجة لمن لا يقتنع فجاء بهذه الدلائل الواضحة "^(٥) ، وينتهي الخطاب بقوله تعالى : " إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون " ، والآيات هي الدلائل والمعجزات ، وقد جاءت منكراً ، " والتكبير للتفخيم "^(٦) . ثم يبين لنا أن هذه الدلائل لقوم يعقلون ؛ أي يفكرون ويتدبرون ويؤمنون .

١. آية ١٦٣ من سورة البقرة .

٢. الصابوني ، محمد علي : صفوة التفاسير ، ج١ ، ص١١٢ .

٣. ابن عاشور ، محمد الطاهر : التحرير والتنوير ، ج٢ ، ص٧٤ .

٤. آية ١٦٤ من سورة البقرة .

٥. ابن عاشور ، محمد الطاهر : السابق ، ج٢ ، ص٧٦ .

٦. الألويسي ، أبو الفضل : روح المعاني ، ج٢ ، ص٣٣ .

وانظر الصابوني : السابق ، ج١ ، ص١١٢ .

فالخطاب في هذا السياق يراعي أحوال الناس جميعاً من مؤمن ومنكر وجاحد ، ويأتي بالخطاب ليناسب جميع هذه الألفهام ، ويتدرج ليصل إلى مرتبة الجاحدين المنكرين مدلاً على وحدانيته سبحانه بأدلة حسية ملموسة لا مجال للتشكيك فيها .

ويعود الخطاب مرة أخرى موجّهاً إلى الناس كافة ، بقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلالاً طَيِّباً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ * إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾^(١) . وقد جاء الخطاب هنا بـ﴿ يا أيها الناس ﴾ ، هذا الخطاب الذي يجمع الناس تحت وصف واحد وسط مشاعر الكثيرين ورغبتهم في الاستعلاء على غيرهم ، والانفراد بالألقاب الكبيرة التي تركز الاتجاه نحو المصانعة والنفاق الاجتماعي ، فيكون في مثل هذه الصيغ القرآنية في المخاطبة تذكير للتجاهات السلبية ، والقيم الناقصة ، وتكريس للعوامل المشتركة بين البشر التي تعيدهم إلى القاسم المشترك بينهم لكي لا ينسوه . ويشمل الخطاب تحذيراً حاداً للناس من الشيطان الذي عبر عنه بقوله : ﴿ عَدُوٌّ ﴾ ، لبيان مدى خطورته على جميع الناس . وفي قوله : ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطَانِ ﴾ " الضمير للناس لا محالة وهم المشركون المتلبسون بالمنهي عنه دوماً ، وأما المؤمنون فحظهم منه التحذير والموعظة " ^(٢) . وقد بدأ الخطاب بالسماح للناس أن يأكلوا من خيرات الأرض حلالاً ، ثم بعد ذلك يبدأ التحذير والنصيحة في آن واحد ، ولم ينه الخطاب الناس عن اتباع الشيطان اعتباطاً ، وإنما يستمر الخطاب ليبين لهم سبب هذا النهي ، لإقناعهم بضرورة الابتعاد عن طريق الشيطان . من هنا نلاحظ التدرج في الخطاب حسب نفسيات الناس وأفهامهم ، وهذه إحدى ميزات الأسلوب الخطابي الموجه للناس .

ثم يأتي الخطاب التالي بلون خطابي آخر تشریفاً وتكريماً للناس بوصفهم عباده سبحانه ، في قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴾^(٣) .

١. الأيتان ١٦٨-١٦٩ من سورة البقرة .

٢. ابن عاشور ، محمد الطاهر : التحرير والتنوير ، ج٢ ، ص ١٠٢ .

٣. آية ٢٠٧ من سورة البقرة .

والعبودية وصف ينطبق على جميع الناس ، يحزره المؤمن بطاعته لله سبحانه ، ويحزره غيره من حيث إن قضاء الله نافذ فيه شاء أم أبى ، وقد خاطب القرآن الكريم بهذه الصيغة عباده جميعاً مؤمنين وغيرهم ؛ استعطافاً لهم واستثارة لمشاعرهم تجاه مولاهم وخالقهم سبحانه ، وهذا من الأساليب القرآنية المميزة في خطاب الناس . وهذه الآية " أبعد مدى من مجرد حادث ومن مجرد فرد . وهي ترسم صورة نفس ، وتحدد ملامح نموذج من الناس ، ترى نظائره في البشرية هنا وهناك " (١) .

ويأتي الخطاب التالي مبيناً للناس الغاية من بعث الأنبياء في قوله تعالى : ﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ (٢) . فالغاية من بعث الأنبياء تبشير الناس بالجنة وإنذارهم من النار . وفي قوله ﴿ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾ قدّم مبشرين لما فيها من الترغيب على منذرين التي تشمل الترهيب ، وقد تم عرض الخطاب بأسلوب يناسب جميع الأفهام . وقوله : ﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ " فيه إيجاز بالحذف أي كانوا أمة واحدة على الإيمان متمسكين بالحق فاختلّفوا فبعث الله النبيين ودل على المحذوف قوله ﴿ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ ﴾ " (٣) .

ثم يأتي الخطاب التالي بشكل آخر ، فهو في ظاهره للرسول صلى الله عليه وسلم وفي حقيقته للناس عامة في قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ (٤) ، ويأتي الخطاب هنا بأسلوب قصصي ، وهو أحد أساليب القرآن الكريم المتنوعة ، يعرض من خلاله قصص الأمم السابقة للناس ليتعظوا ويعتبروا . ويبدأ

١. قطب ، سيد : في ظلال القرآن ، ج ٢ ، ص ٢٩٧ .

٢. آية ٢١٣ من سورة البقرة .

٣. الصابوني ، محمد علي : صفوة التفاسير ، ج ١ ، ص ١٢٨ .

٤. آية ٢٤٣ من سورة البقرة .

الخطاب هنا بالاستفهام التعجبي " ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ ، والرؤية هنا بمعنى التبصر هي رؤية قلبية . وهذا الخطاب يأتي ليؤكد للناس قدرته سبحانه بلون خطابي مختلف . وقد اشتمل الخطاب على الطباق في قوله : " موتوا وأحياهم " . كما نلاحظ تكرار لفظة " الناس " في السياق نفسه مرتين ، لفتاً لانتباههم في أنهم المقصودون بهذا الخطاب .

ثم يلجأ الخطاب إلى الأدلة والبراهين لإثبات قدرة الله سبحانه وتعالى للناس في قوله :
﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ (١) .

وفي آية الكرسي أنواع من الفصاحة وعلم البيان منها حسن الافتتاح ... ، وتكرار اسمه ظاهراً ومضمراً في ثمانية عشر موضعاً ، والإطناب بتكرير الصفات (٢) . والصواب أن اسمه عز وجل ورد فيها سبعة عشر موضعاً ، وفيها أيضاً تقديم سنة على نوم ، لأن السنة تكون بداية النوم ، كما تضمنت الآية الأسلوبين الإنشائي والخبري . وقد عبر بسعة علمه وقدرته بقوله : ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ للدلالة على عظم هذا العلم وهذه القدرة . وقد جاء هذا الخطاب ليدعو الناس إلى التفكير والتدبر في قدرة هذا الخالق العظيمة التي لا حدود لها .

ويأتي الخطاب التالي ليترك القرار للإنسان بعد تقديم الأدلة والبراهين التي تثبت قدرة الله سبحانه ووحدانيته في قوله تعالى : ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (٣) . فالقرار النهائي للإنسان ، " وفي هذا المبدأ يتجلى تكريم الله للإنسان ؛ واحترام إرادته وفكره ومشاعره ؛ وترك أمره لنفسه فيما يختص بالهدى والضلال في الاعتقاد؛ وتحمله تبعه عمله وحساب نفسه .. وهذه هي أخص خصائص التحرر الإنساني .. التحرر

١. آية ٢٥٥ من سورة البقرة .

٢. الصابوني ، محمد علي : صفوة التفاسير ، ج ١ ، ص ١٦٤ .

٣. آية ٢٥٦ من سورة البقرة .

الذي تتكره على الإنسان في القرن العشرين مذاهب متعسفة ونظم مذلة^(١). وهنا نلاحظ تدرج وتسلسل الأسلوب الخطابي الموجه للناس؛ فقد تم عرض دلائل قدرة الله سبحانه من خلال الخطابات السابقة بأساليب مختلفة ومتنوعة، ثم بصّروهم بالطريق السليم، وفي النهاية ترك لهم الخيار ليتحملوا عاقبة ذلك إن شراً وإن خيراً.

ويعصور لنا الخطاب التالي مصير المؤمنين والكافرين في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾^(٢). وقد عبّر بالمضارع في قوله: "يخرجهم" و"يخرجونهم" لما في ذلك من التجدد على مر العصور والأزمان. وفي قوله تعالى: "هم فيها خالدون" وعد وتحذير للكافرين، ولعل عدم مقابله بوعد المؤمنين كما قيل: للإشعار بتعظيمهم وان أمرهم غير محتاج إلى البيان وأن شأنهم أعلى من مقابلة هؤلاء^(٣). وينقلنا هذا الخطاب أمام "مشهد عجيب حي موح والخيال يتبع هؤلاء وهؤلاء، جيئة من هنا وذهاباً من هناك. بدلاً من التعبير الذهني المجرد، الذي لا يحرك خيالاً، ولا يلمس حساً، ولا يستجيش وجداناً، ولا يخاطب إلا الذهن بالمعاني والألفاظ"^(٤). وهذه ميزة من مزايا الأساليب القرآنية المتنوعة التي تترك أثراً في النفس البشرية، وقد قدّم حال المؤمنين على حال المشركين تشريفاً وتعظيماً لهم.

ثم يأتي السياق التالي بأسلوب خطابي آخر، وهو الأسلوب القصصي، يعرضه على الناس، ليتفكروا ويتدبروا في عظم قدرة الله عز وجل في قوله: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا

١. قطب، سيد: في ظلال القرآن، ج٣، ص٤٢٥-٤٢٦.

٢. آية ٢٥٧ من سورة البقرة.

٣. الألويسي، أبو الفضل: روح المعاني، ج٣، ص١٥.

٤. قطب، سيد: في ظلال القرآن، ج٣، ص٤٢٨.

ثُمَّ نَكْسُوهَا لِحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ^(١). فمن خلال عرض هذه القصة ، إنما يتم عرض مشاهد حسية مليئة بالحركة ، فهي قصة حقيقية ، جيء بها لتترك أثراً أعمق في النفس من التعبير بلغة معجمية دون اللجوء إلى الأسلوب القصصي . فلم يعبر سبحانه عن إحيائه الموتى بقوله : ﴿أنا أحيي وأميت﴾ ، وإنما عبر عن ذلك من خلال استعراض قصة تستجيش المشاعر كلها ، وقد كرر لفظة ﴿انظر﴾ ، ولا يقصد بها النظر البصري ، وإنما النظر العقلي . كما نلاحظ استخدام أسلوب الحوار بينه عز وجل وبين هذا الرجل ، ويمتاز الحوار بتدرج المنطقي المتسلسل المترابط ؛ لإقناع الناس بهذه الحقيقة .

ويعود الخطاب ليعرض للناس صورتين متقابلتين في قوله تعالى : ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ * يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾^(٢) . وفي هذا الخطاب أحر اسمه جل جلاله ، " وقدم اسم الشيطان مسنداً إليه لأن تقديمه مؤذن بزم الحكم الذي سبق له الكلام وشؤمه لتحذير المسلمين من هذا الحكم"^(٣) ، ويضع هذا الخطاب أمام الناس وعدين متقابلين : وعد الشيطان ، ووعد الله - عز وجل - ؛ تحذيراً من اتباع طريق الشيطان ، وترغيباً في الإيمان . وقد عبر عن الهدى بقوله : ﴿يؤتي الحكمة﴾ ، "فالمقصود التنبيه إلى نفاثة ما وعظهم الله به . وتنبههم إلى أنهم قد أصبحوا به حكماء بعد أن كانوا في جاهلية جهلاء"^(٤) . ويختتم الخطاب بقوله تعالى : ﴿وما يذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ ، وهذا مدح لهم بأنهم أصحاب عقول مفكرة متدبرة ، وهو في الوقت نفسه تشريف وإعلاء لمكانتهم بين أولئك الذين لا يتفكرون .

وتختتم خطابات سورة البقرة الموجهة للناس مبينة قدرته سبحانه وتعالى في خطاب

١. آية ٢٥٩ من سورة البقرة .

٢. الأيتان ٢٦٨-٢٦٩ من سورة البقرة .

٣. ابن عاشور ، محمد الطاهر : التحرير والتنوير ، ج٣ ، ص ٥٩ .

٤. ابن عاشور ، محمد الطاهر : السابق ، ج٣ ، ص ٦١ .

شمل الترغيب والتحذير في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يُحَاسِبِكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَنْفَعُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾^(١) . ويبدأ الخطاب بإقرار ملكية الله سبحانه لجميع مخلوقاته ، ثم عرض دلائل قدرته سبحانه وتعالى بقوله : ﴿ وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يُحَاسِبِكُمْ بِهِ اللَّهُ ﴾ ؛ فعلمه وقدرته لا يقتصران على ما هو ظاهر ، وإنما يتعديان إلى الخفي المجهول ، "وتقديم المغفرة على التحذير لتقديم رحمته على غضبه"^(٢) ؛ رافة بالناس ورحمة بهم .

ونلاحظ من خلال تحليل المستوى الخطابي للناس أنه امتاز بعدة ميزات عن غيره من الخطابات ، فقد اعتمد على تقديم الأدلة والبراهين المقنعة ، التي تدعو الناس إلى التدبر والتفكير وإعمال الفكر للوصول إلى الغرض المطلوب ، وهو في الغالب إثبات وحدانية الله وقدرته وعلمه للناس كافة معتمداً على الأدلة المحسوسة .

وقد تدرج خطاب الناس من تقديم الحقائق ثم البرهنة على صحتها ، وبعد هذا كله ترك الخيار للإنسان نفسه ، بعد تقديم نماذج وصور حسية لكل من المؤمنين والكافرين بأسلوب متميز يناسب جميع الأفهام على اختلافها .

١. آية ٢٨٤ من سورة البقرة .

٢. الألويسي ، أبو الفضل : السابق ، ج ٣ ، ص ٦٥ .

ج- خطاب المؤمنين :

اختلفت مستويات الخطاب في القرآن الكريم حسب المخاطب والغرض الذي جاءت من أجله . وقد جاء خطاب المؤمنين في سورة البقرة - في الغالب - ب "يا أيها الذين آمنوا" خطاب تشريف وتعظيم لهم ، وهذا هو الخطاب المحبب إلى نفوسهم ، بوصفهم عباد الله المؤمنين .

وقد تعددت مستويات الخطاب وأساليبه في خطاب المؤمنين ، فهي بين التكليف بالأوامر والفرائض ، والنهي عن المنكرات والفواحش ، والتحذير من الكفار وأعمالهم ، والترغيب في أعمال الخير تقرباً إليه سبحانه وتعالى .

ويأتي الخطاب في بداية سورة البقرة موجهاً للمؤمنين مبيناً صفاتهم في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ* وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾^(١) . فالخطاب هنا يبيّن لنا الأعمال التي تميز المسلم عن غيره ، وقد جاء التعبير بالمضارع لما يفيد من التجدد في كل زمان ومكان . ويتم عرض هذه الأعمال عرضاً متناسقاً ، بحيث ترتبط مع بعضها البعض وتتحد لتكون النتيجة الإنسان المؤمن ، وقد امتاز الخطاب بالملاطفة ، فالحديث هنا عن قوم آمنوا والتزموا بالفرائض طاعة وتقرباً لله سبحانه وتعالى .

ويتبعه خطاب يكمل هذه الأعمال التي تجعل من هؤلاء القوم أمة مؤمنة مخلصه في إيمانها لله سبحانه وتعالى في قوله: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ* الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾^(٢) . والغرض من هذا الخطاب هو نصح المؤمنين بما فيه صلاحهم في الدنيا والآخرة ، لذلك جاء الخطاب مغلفاً

١. الآيات ٣-٤ من سورة البقرة .

٢. الآيات ٤٥-٤٦ من سورة البقرة .

باللطف والحنان ، وفي هذا تطمين للمؤمنين الذين رضي الله سبحانه عنهم . وفي قوله:
﴿ وَإِنهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴾ " الضمير للصلاة - كما يقتضيه الظاهر ، وتخصيصها
- برد الضمير إليها- لعظم شأنها واستجماعها ضرورياً من الصبر " (١) .

ويأتي الخطاب التالي بلون مختلف ، حيث يستهل بالاستفهام في قوله تعالى:
﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ
مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ (٢) . والخطاب هنا موجه للمؤمنين يحذرهم من الكفار ، وقد بدأ
الخطاب بالاستفهام في قوله : " أفطمعون " ، وهذا " الاستفهام للاستبعاد (أو) للإنكار
التوبيخي " (٣) . كما نلاحظ أن تحذير المؤمنين من الكافرين يأتي بأساليب متنوعة ومختلفة
تبيّن صفاتهم ، " ويدل طول هذا الحديث ، وتنوع أساليبه على ضخامة ما كانت تلقاه الجماعة
المسلمة من الكيد المنصوب لها والمرصود لدينها من أولئك اليهود ! " (٤) . ويختتم الخطاب
بتقريع شديد لليهود في قوله تعالى : " من بعد ما عقولهم وهم يعلمون " ، وهذه الجملة " جملة
مفيدة لكمال قبح صنيعهم ، فتحريفهم للتوراة كان عن قصد وتصميم ، لا عن جهل أو نسيان ،
ومن يرتكب المعصية عن علم يستحق الذم والتوبيخ أكثر ممن يرتكبها وهو جاهل " (٥) . ولهذا
التحذير دلالة بالنسبة للمؤمنين ، فهو يدل على مدى رحمته سبحانه وتعالى بهم ، فقد بدأ
الخطاب بالاستفهام ، ثم جاء بما يؤكد للمؤمنين سبب هذا التحذير مبيناً لهم مدى ظلم الكفار
وطغيانهم .

ويأخذ الخطاب شكلاً آخر في بيان مصير المؤمنين الصابرين في قوله
تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ (١) .
ويستهل الخطاب بقوله تعالى: " والذين آمنوا " خطاب تشريف وتكريم ، واستخدام اسم الإشارة

١. الألويسي، أبو الفضل : روح المعاني ، ج ١، ص ٢٤٩

٢. آية ٧٥ من سورة البقرة .

٣. الألويسي : السابق، ج ١، ص ٢٩٨ .

٤. قطب، سيد : في ظلال القرآن ، ج ١/ ص ١٠٧ .

٥. الصابوني ، محمد علي : صفوة التفاسير ، ج ١، ص ٧٢ .

٦. آية ٨٢ من سورة البقرة .

"اولئك" الذي يستخدم للبعيد ، دلالة على علو مكانتهم عند الله سبحانه وتعالى ، ويختتم الخطاب بترغيب الناس بالإيمان عن طريق وصف حالهم عند ربهم "هم فيها خالدون".

ويختلف الأسلوب الخطابى في السياق التالي ، فهو دعوة للناس لمراعاة أدب الخطاب مع الرسول -صلى الله عليه وسلم- . في قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَأَسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾^(١) . وقد جاء الخطاب هنا لينهى المسلمين عن بعض أقوالهم في مخاطبة الرسول -صلى الله عليه وسلم- ، وذلك لأن اليهود كانت تستعمل هذه الأقوال سباً على سيدنا محمد - صلى الله عليه وسلم- . وقد بدأ الخطاب بقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ ، وهذا أول خطاب خوطب به المؤمنون في هذه السورة بالنداء الدال على الإقبال عليهم^(٢) ، وهو في الوقت نفسه خطاب تشریف وتعظيم لهم ، ثم ينهاهم فيه عن قول : "راعنا" بأسلوب هادئ مغلف بالنصيحة ، ويأمرهم أن يستبدلوها بـ "انظرننا" ، حيث "أبدلهم بقولهم "راعنا" كلمة تساويها في الحقيقة والمجاز وعدد الحروف والمقصود من غير أن يتذرع بها الكفار لأذى النبي صلى الله عليه وسلم وهذا من أبداع البلاغة"^(٣) . وفي نهيمهم عن قولها "تنبهه لأدب جميل هو أن الإنسان يتجنب في مخاطباته الألفاظ التي توهم الجفاء أو التنقيص في مقام يقتضي إظهار المودة والتعظيم"^(٤) . من هنا نلاحظ أن القرآن الكريم يبين للمؤمنين في كثير من آياته أدب المخاطبة مع الله عز وجل ، ومع رسوله الكريم - صلى الله عليه وسلم - وفيما بينهم أيضاً ، وحتى مع الكفار بأساليب ومستويات خطابية متنوعة . ويتضمن الخطاب وعيداً وتهديداً لليهود في قوله تعالى : "وللكافرين عذابٌ أليم" لاستغلالهم كلمة "راعنا" وتأويلها في سب الرسول الكريم ، "والتعبير بالكافرين دون اليهود زيادة في ذمهم"^(٥) .

ثم يأتي الخطاب التالي داعياً المؤمنين للتخلي بالأخلاق الكريمة والصفح عن الكفار في قوله تعالى : ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ

١. آية ١٠٤ من سورة البقرة .

٢. الصابوني ، محمد علي : صفوة التفاسير ، ج١ ، ص٨٧ .

٣. ابن عاشور ، محمد الطاهر : التحرير والتوير ، ج١ ، ص٦٥١ .

٤. الصابوني : السابق ، ج١ ، ص٨٧ .

٥. ابن عاشور ، السابق ، ج١ ، ص٦٥٢ .

عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَأَعْمُوا وَأَصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهَ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ»^(١) . ويكشف لنا هذا الخطاب نفسية الكافرين المريضة الممتلئة بالحق والحسد على المؤمنين ، ومع ذلك يأتي الخطاب القرآني ليدعو المؤمنين إلى العفو والصفح والتخلي بالأخلاق الكريمة ، بعد دعوتهم في السياق السابق إلى التحلي بأدب الخطاب ، ليصل بهم إلى مكانة عالية عظيمة . وفي قوله : " فاعفوا واصفحوا " فإن الصفح "أبلغ من العفو ... ولذلك عطف الأمر به على الأمر بالعفو لأن الأمر بالعفو لا يستلزمه ولم يستغن باصفحوا لقصد التدرج في أمرهم بما قد يخالف ما تميل إليه أنفسهم من الانتقام تلطفاً من الله مع المسلمين في حملهم على مكارم الأخلاق"^(٢) . وينتهي الخطاب بقوله : " إن الله على كل شيء قدير " وهذا تذييل مؤكد لما فهم منه سابقه ، وفيه إشعار بالانتقام من الكفار ووعد للمؤمنين بالنصرة والتمكين"^(٣) .

وفي خطاب آخر يدعو المؤمنين فيه إلى الالتزام بالفرائض في قوله تعالى : ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾^(٤) . ويأتي هذا الخطاب ليدعو المؤمنين وسط حقد الكافرين وحسدهم أن يتوجهوا إلى طاعته سبحانه وتعالى ؛ "لينقذ قلوبهم من نتن الحقد والضغينة"^(٥) ، وفي قوله : "وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله " ترغيب للمؤمنين وترهيب للكافرين ، وفيه تعريض باليهود"^(٦) . وهكذا نجد الخطاب القرآني يتصافر ليجعل من المؤمنين نموذجاً مشرقاً ، وفي إظهار الاسم الجليل في قوله : " إن الله " وعند الله " بدل الضمير ، "لتربية الروعة والمهابة في النفوس"^(٧) .

١. آية ١٠٩ من سورة البقرة .

٢. ابن عاشور ، محمد الطاهر : التحرير والتنوير ، ج ١ ، ص ٦٧١ .

٣. الألويسي ، أبو الفضل : روح المعاني ، ج ١ ، ص ٣٥٨ .

٤. آية ١١٠ من سورة البقرة .

٥. قطب ، سيد ، في ظلال القرآن ، ج ١ ، ص ١٣٨ .

٦. ابن عاشور ، محمد الطاهر : السابق ، ج ١ ، ص ٦٧٢ .

٧. الصابوني ، محمد علي : صفوة التفاسير ، ج ١ ، ص ٨٧ .

ويتجه خطاب آخر يدعو المؤمنين إلى إعلان إيمانهم في قوله تعالى: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ وَمَا أُوتِيَٰ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ* فَإِن آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾^(١) . ويأتي قول المؤمنين هذا رداً على الكفار ، وفيه تحدٍ لهم على مقولاتهم جميعاً ، وينقسم الخطاب هنا إلى قسمين : "الشرط الأول حكاية عن قول الله ، والشرط الثاني حكاية عن قول المؤمنين . وهو تشریف عظيم أن يلحق كلام المؤمنين بكلام الله في سياق واحد ، بحكم الصلة الوثيقة بينهم وبين ربهم"^(٢) . وقد قدّم الإيمان بالله سبحانه لأنه الأساس ، ثم يأتي الإيمان بالرسول جميعاً ، وفي قوله : " وما أُوتِيَ عطفاً على " ما أُنزِلَ " ، وتكريرها معبراً "بالإيتاء دون -الإنزال- لأنه أبلغ لكونه المقصود منه ، ولما فيه من الدلالة على الإعطاء الذي فيه شبه التملك والتفويض"^(٣) . وقد أضاف الأنبياء إلى الربوبية في قوله : " من ربهم" وهذا تشریف وتعظيم لهم . وعند تحول الكلام من المؤمنين إلى الكفار يستخدم أسلوب الالتفات من المتكلم إلى الغائب ، هزاً للمسامح . كما يتضمن هذا الخطاب تحذيراً شديداً للكفار في قوله : ﴿ فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ ﴾ مبيناً حالتهم من الفرقة والاختلاف . وفي قوله تعالى "سَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ" إيجاز بالحذف ، " أي يكفيك الله شرهم ، وتصدير الفعل بالسين دون سوف مشعر بأن ظهوره عليهم واقع في زمن قريب"^(٤) . فقد ضم هذا الخطاب أساليب بلاغية متنوعة ، تناسقت مع بعضها البعض بأسلوب خطابي يمتاز بالملاطفة للمؤمنين ، وفي الوقت نفسه بالتحذير والترهيب للمشركين .

وتتوالى خطابات المؤمنين بأشكال وألوان مختلفة ، فهذا خطاب تشریف لهم في قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ

١ . الآيات ١٣٦-١٣٧ من سورة البقرة .

٢ . قطب ، سيد : في ظلال القرآن ، ج ١ ، ص ١٦٢-١٦٣ .

٣ . الأوسى ، أبو الفضل : روح المعاني ، ج ١ ، ص ٣٩٥ .

٤ . الصابوني ، محمد علي : صفوة التفاسير ، ج ١ ، ص ١٠٠ .

شَهِيداً وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَيَّ عَقْبَيْهِ
وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَيَّ الدِّينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ
لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ^(١) . والتشريف واقع للمؤمنين بجعلهم شهداء على الناس من ناحية ، ويجعل
الرسول - صلى الله عليه وسلم - عليهم شهيداً من ناحية أخرى . ويبدأ الخطاب بـ "كذلك" ،
وقد "جاء بما يدل على البعد تفخيماً"^(٢) . وتظهر بلاغة الخطاب القرآني في قوله تعالى:
"لتكونوا شهداء على الناس" وقوله: "ويكون الرسول عليكم شهيداً" إذ تم تأخير الجار
والمجرور في الأولى وتقديمها في الثانية ، "فإن قيل : لم قدم المجرور في قوله عليكم شهيداً
وآخره في قوله : شهداء على الناس ؟ فالجواب : أن تقديم المعمولات يفيد الحصر ، فقدم
المجرور في قوله : عليكم شهيداً ؛ لاختصاص شهادة النبي صلى الله عليه وسلم بأمتة ولم
يقدّمه في قوله شهداء على الناس لأنه لم يقصد الحصر"^(٣) . وهذا دليل على بلاغة الأسلوب
القرآني في اختيار الألفاظ التي تعبر عن المعاني خير تعبير . ومن أساليب البلاغة أيضاً
التعبير عن الارتداد عن الدين بالإنقلاب على العقبين زجراً وتوبيخاً لهؤلاء المرتدين . كما
"سمى الله تعالى الصلاة "إيماناً" في قوله (وما كان الله ليضيع إيمانكم) أي صلاتكم لأن
الإيمان لا يتم إلا بها ، ولأنها تشتمل على نية وقول وعمل"^(٤) وفي هذا تطمين للمؤمنين من
عدم إضاعة ثوابهم . وقد استخدم أسلوب الالتفات بشكل واضح في هذا الخطاب ، من خطاب
المؤمنين إلى خطاب الرسول - صلى الله عليه وسلم - إلى خطاب المؤمنين مرة أخرى ، لما
للالتفات من "قوائد عامة وخاصة ، فمن العامة التفتن والانتقال من أسلوب إلى آخر لما في
ذلك من تنشيط السامع"^(٥) . ويختتم الخطاب بتذييل لجميع ما سبق قوله : "إن الله بالناس
لرؤوف رحيم" ، وهذا يؤكد أن الرحمة لم تقتصر على المؤمنين ، وإنما هي لجميع الناس ،
وقد قدم (رؤوف) على (رحيم)؛ "لأن الرأفة مبالغة في رحمة خاصة"^(٦) .

١. آية ١٤٣ من سورة البقرة .

٢. الألويسي ، أبو الفضل : روح المعاني ، ج ٢ ، ص ٣

٣. الكلبي ، محمد بن أحمد : التسهيل لعلوم التنزيل ، ج ١ ، ص ٦٢ .

٤. الصابوني ، محمد علي : صفوة التفاسير ، ج ١ ، ص ١٠٣ .

٥. الزركشي ، بدر الدين : البرهان في علوم القرآن ، ج ٣ ، ص ٣٢٥-٣٢٦ .

٦. الألويسي ، أبو الفضل : السابق ، ج ٢ ، ص ٧ .

ثم يأتي الخطاب التالي مبيناً فضل الله سبحانه وتعالى على المؤمنين في قوله: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾^(١) وهذا يؤكد كون الرسول - صلى الله عليه وسلم - منهم ، وهذا من "التكريم والفضل"^(٢) الذي خص الله سبحانه به المؤمنين. وقوله: " كما أرسلنا فيكم رسولاً دون أن يذكر اسمه ، " وتكرّر رسولاً للتعظيم ولتجري عليه الصفات التي كل واحدة منها نعمة خاصة"^(٣) . وفي قوله: " آياتنا" تشریف آخر وتأكيد على أنها منزلة من عند الله سبحانه وتعالى ، وهذا تصديق لسيدنا محمد - صلى الله عليه وسلم- . "وقوله (ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون) بعد قوله (ويعلمكم الكتاب والحكمة) هو من باب ذكر العام بعد الخاص لإفادة الشمول"^(٤) .

ويتبعه خطاب يبين كيفية شكر المؤمنين لله على النعمة التي ورد ذكرها في السياق السابق بقوله تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونَ﴾^(٥) . وهذا تشریف آخر للمؤمنين ، حيث قرن سبحانه وتعالى ذكره لهم بذكرهم له ؛ فذكرهم له يكون بالعبادة والشكر، أما ذكره لهم فيكون بالثواب الذي أعده لهم ، "وإنما قدّم الذكر على الشكر لأن في الذكر اشتغالاً بذاته تعالى وفي الشكر اشتغالاً بنعمته والاشتغال بذاته تعالى أولى من الاشتغال بنعمته"^(٦) . وهو يدعوهم إلى شكره على نعمه ناصحاً لهم بأسلوب يمتاز بالتأنيس والملاطفة . وهذا شأنه سبحانه وتعالى في مخاطبة المؤمنين .

ويأتي الخطاب التالي ليكمل نصيحة المؤمنين في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾^(٧) .

١. آية ١٥١ من سورة البقرة .

٢. قطب ، سيد : في ظلال القرآن ، ج ٢ ، ص ١٩٣ .

٣. ابن عاشور ، محمد الطاهر : التحرير والتنوير ، ج ٢ ، ص ٤٨ .

٤. الصابوني ، محمد علي : صفوة التفاسير ، ج ١ ، ص ١٠٧ .

٥. آية ١٥٢ من سورة البقرة .

٦. الألويسي ، أبو الفضل : روح المعاني ، ج ٢ ، ص ١٩ .

٧. آية ١٥٣ من سورة البقرة .

ثم يأتي الخطاب التالي مبيناً فضل الله سبحانه وتعالى على المؤمنين في قوله: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾^(١) وهذا يؤكد كون الرسول - صلى الله عليه وسلم - منهم ، وهذا من "التكريم والفضل"^(٢) الذي خص الله سبحانه به المؤمنين. وقوله: " كما أرسلنا فيكم رسولاً" دون أن يذكر اسمه ، " ونكرّ رسولاً للتعظيم ولتجري عليه الصفات التي كل واحدة منها نعمة خاصة"^(٣) . وفي قوله: " آياتنا" تشریف آخر وتأكيد على أنها منزلة من عند الله سبحانه وتعالى ، وهذا تصديق لسيدنا محمد - صلى الله عليه وسلم- . "وقوله (ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون) بعد قوله (ويعلمكم الكتاب والحكمة) هو من باب ذكر العام بعد الخاص لإفادة الشمول"^(٤) .

ويتبعه خطاب يبين كيفية شكر المؤمنين لله على النعمة التي ورد ذكرها في السياق السابق بقوله تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُون﴾^(٥) . وهذا تشریف آخر للمؤمنين ، حيث قرن سبحانه وتعالى ذكره لهم بذكرهم له ؛ فذكرهم له يكون بالعبادة والشكر، أما ذكره لهم فيكون بالثواب الذي أعده لهم ، " وإنما قدّم الذكر على الشكر لأن في الذكر اشتغالاً بذاته تعالى وفي الشكر اشتغالاً بنعمته والاشتغال بذاته تعالى أولى من الاشتغال بنعمته"^(٦) . وهو يدعوهم إلى شكره على نعمه ناصحاً لهم بأسلوب يمتاز بالتأنيس والملاطفة . وهذا شأنه سبحانه وتعالى في مخاطبة المؤمنين .

ويأتي الخطاب التالي ليكمل نصيحة المؤمنين في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾^(٧) .

١. آية ١٥١ من سورة البقرة .

٢. قطب ، سيد : في ظلال القرآن ، ج ٢ ، ص ١٩٣ .

٣. ابن عاشور ، محمد الطاهر : التحرير والتوير ، ج ٢ ، ص ٤٨ .

٤. الصابوني ، محمد علي : صفوة التفاسير ، ج ١ ، ص ١٠٧ .

٥. آية ١٥٢ من سورة البقرة .

٦. الأوسى ، أبو الفضل : روح المعاني ، ج ٢ ، ص ١٩ .

٧. آية ١٥٣ من سورة البقرة .

"وافتح الكلام بالنداء لأن فيه إشعاراً بجرمهم عظيم ، فإن شأن الأخبار العظيمة التي تهول المخاطب أن يقدم قبلها ما يهيء النفس لقبولها لتستأنس بها" (١) . وهو في الوقت نفسه نداء تشريف وتعظيم للمؤمنين . وينتهي الخطاب بقوله : "إن الله مع الصابرين" تطمين وتشجيع لهم . وقد خص الصلاة ؛ لأنها أساس العبادة .

ويأتي خطاب آخر ليؤكد على ضرورة صبر المؤمنين في قوله تعالى : ﴿وَلْتَبْلَوْنَكُمْ بِشْيءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاغِبُونَ * أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ (٢) . والغرض من هذا الابتلاء اختبار صبرهم الذي دعاهم إليه الخطاب القرآني السابق . و "التكثير في قوله (بشيء من الخوف) للتقليل أي بشيء قليل" (٣) . وفي قوله : "صلوات من ربهم ورحمة" بتتوين صلوات ورحمة ، "والتتوين فيهما للتفخيم ، والتعرض بعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميرهم (ربهم) لإظهار مزيد من العناية بهم" (٤) .

ثم يتبعه خطاب آخر يبين للمؤمنين ما أحل لهم لينعموا به وما حرم عليهم ليتجنبوه في قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ * إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلَ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَن اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (٥) . ويبدأ الخطاب هنا أيضاً ب "يا أيها الذين آمنوا" تشريفاً للمؤمنين ، وفيه تنبيه إلى ما سيقال ، ويأتي الخطاب بأسلوب هادئ ؛ ليتقبل المؤمنون هذه الأوامر ويلتزموا بها . ومن خلال هذا الخطاب تظهر رحمته سبحانه بعباده المؤمنين في قوله : "فمن اضطر غير باغ ولا عادٍ فلا إثم عليه" ، فقد سمح سبحانه للمضطر أن يأخذ من هذه المحرمات قدر حاجته .

١. ابن عاشور ، محمد الطاهر : التحرير والتتوير ، ص ٢ ، ص ٥٢ .

٢. الآيات ١٥٥-١٥٦-١٥٧ من سورة البقرة .

٣. الصابوني ، محمد علي : "صفوة التفاسير" ، ج ١ ، ص ١٠٧ .

٤. الصابوني ، السابق ، ج ١ ، ص ١٠٧ .

٥. الآيتان ١٧٢-١٧٣ من سورة البقرة .

وتتوالى خطابات المؤمنين بالمستوى الخطابى نفسه فى بيان أمور دينهم ، وتوضيحها لهم ، ومنها قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحَرْبُ بِالْحَرْبِ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتَّبَعْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَعْتَدَى بِعَدَاةٍ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ * وَكُتِبَ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾^(١) . ويبدأ الخطاب هنا أيضاً بـ "يا أيها الذين آمنوا" خطاب تشرىف ويتكرر تشرىف المؤمنين فى السياق نفسه بإضافتهم إلى الربوبية فى قوله تعالى : "من ربكم" ، وقد بدأ بتقديم الحر على العبد والأنثى للتشرىف أيضاً . وقد عبّر عن فرض القصاص عليهم ، وتكليفهم به بقوله : "كتب عليكم" وهذا من باب التفنن فى التعبير عن المعانى بألفاظ مختلفة لها دلالتها . واستخدم فى هذا الخطاب المجاز أيضاً فى قوله : "القتلى" ، أي الذين سيقتلون فيما بعد . ثم يعود إلى التهديد الشديد للمعتدين بعد ذلك بقوله : "فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم" . وقدم فى القصاص على حياة فى قوله : "ولكم فى القصاص حياة" للتشويق إلى ما سيقال ، وجاءت حياة منونة ، وهذا التتوين "من النوعية أو التعظيم"^(٢) ، والمقصود بالنوعية هنا هي نوعية الحياة . ويختتم الخطاب بمدح المؤمنين ، وبوصفهم بما يحبون سماعه فى قوله : "يا أولي الألباب" تعظيماً لهم وبيانا لمكانتهم . وقد جاء الخطاب بطريق النصيحة للمؤمنين لا بالتكليف والأمر ؛ رفقا بهم كونهم عباد الله المؤمنين .

وفى الحديث عن الوصية يأتى الخطاب ليبين للمسلمين كيفية أدائها فى قوله تعالى : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴾^(٣) . وقد عبّر هنا أيضاً عن فرض الوصية وبيانها بقوله : "كُتِبَ" تعبيراً بلاغياً . كما عبّر عن بيان إمارات الموت وظهور علاماته بقوله : "حضر الموت" ، والموت لا يحضر على الحقيقة ، وهذه الأساليب البلاغية تزيد الخطاب قوة وجزالة وبيانا . وبدأ بالوالدين لقرب منزلتهما ومكانتهما من الأبناء ، فالتقديم هنا حسب الرتبة . وينتهي الخطاب بقوله تعالى : "حقاً على المتقين" وفيه تأكيد على الالتزام بالوصية ، وذكر

١. الأيتان ١٧٨-١٧٩ من سورة البقرة .

٢. الألوسى، أبو الفضل : روح المعاني ، ج ٢ ، ٥١ .

٣. آية ١٨٠ من سورة البقرة .

المتقين من باب الإلهاب والتهييج"^(١) ، ليستمعوا لهذه الأوامر ويفهموها ثم يطبقوها ابتغاء مرضاة الله . ولم يُصدّر هذا الخطاب بـ "يا أيها الذين آمنوا" كما هو الحال في الخطابات السابقة ؛ "تقرب العهد بالتبنيه مع ملابسته بالسابق في كون كل منهما متعلقاً بالأموال ، أو لأنه لما لم يكن شاقاً لم يصدره كما صدر الشاق تشبيهاً لفعله"^(٢) .

ويتكرر التعبير عن الفرض بقوله تعالى : "كُتِبَ عَلَيْكُمْ" فيما يتعلّق بالفرائض طلباً من المسلمين الالتزام بها في قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾^(٣) . ويصدر الخطاب هنا أيضاً بـ "يا أيها الذين آمنوا" تشبيهاً لما سيقال ، فهم مكلفون بأمر شاق عليهم . وفي قوله : " كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم " تأنيس لهم للتغلب على هذه المشقة ، وزيادة في التأنيس يقول سبحانه : " أياماً معدودات" لبيان أنها قليلة على المؤمنين ، وتظهر رافة الخطاب القرآني بالمؤمنين في قوله : " وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين " فلا يكلف المسلم إلا قدر استطاعته ، فهناك ملجأ للذين لا يستطيعون الصوم بأسلوب لطيف ، وهذا من شأنه أن يزيد صلة المؤمن بربه نتيجة هذا التساهل من الله سبحانه وتعالى مع عباده المؤمنين .

ويتبعه خطاب آخر مبيناً للمؤمنين ما أحل الله لهم في رمضان في قوله تعالى : ﴿ أَحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّقْتُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ عَلِيمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتَمُوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لِنَاسٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾^(٤) . وقد اشتمل هذا الخطاب على ألوان بلاغية متنوعة ، فقد عبر عن الجماع بالرفث على سبيل الكناية ، مراعاة لأدب الخطاب

١. الصابوني ، محمد علي : صفوة التفاسير ، ج ١ ، ص ١١٩ .

٢. الألويسي ، أبو الفضل : روح المعاني ، ج ٢ ، ص ٥٢ .

٣. الأيتان ١٨٣-١٨٤ من سورة البقرة .

٤. الآية ١٨٧ من سورة البقرة .

القرآني ، وفي قوله : " هن لباس لكم وأنتم لباس لهن" تشبيه كل من الرجل والمرأة باللباس الذي يستر صاحبه ، لما ينشأ عن هذه العلاقة من الاستقرار والطمأنينة والسكينة بين الزوجين بهذه العلاقة المقدسة ، كما عبّر أيضاً عن بزوغ الفجر وظلام الليل بالخييط الأبيض والخييط الأسود على سبيل الاستعارة ، ويعود ليعبر مرة أخرى عن الجماع بلفظة مختلفة "باشروهن" ، بالإضافة إلى أنه عبّر عن أوامر الله ونواهيه بالحدود التي لا يجوز اجتيازها . فقد جمع هذا الخطاب في طياته الكناية والتشبيه والاستعارة بعبارات وجمل متناسقة مترابطة فيما بينها زادت الخطاب قوة وجزالة .

وإذا أمعنا النظر في الخطابات الأربعة الأخيرة نجدها تبدأ بتكليف المؤمنين وبيان بعض الفرائض وكيفيةها ، وتنتهي باقتران ذلك بالتقوى ، ففي الحديث عن القصاص بقوله سبحانه : "لعلمك تتقون" ، وفي حديثه عن الوصية يقول : " حقاً على المتقين" ، وفي الحديث عن الصيام يقول : "لعلمك تتقون" ، وأخيراً في الحديث عن الرث وإحلاله في رمضان يقول : " لعلمك يتقون" ، واقتران هذه الأمور كلها بالتقوى ، لبيان أهميتها ، وحثاً للمؤمنين على الالتزام بها وعدم تجاوزها .

ثم يتحول الخطاب من التلکيف إلى النهي في قوله تعالى : ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْءُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾^(١) . ويأتي هذا الخطاب متمماً للخطابات السابقة ، ليصل بالإنسان المؤمن إلى مرتبة عالية خالية من الشوائب . ويتضمن الخطاب تهديداً للذين يأكلون هذه الأموال عن علم . وجيء بالإثم لتقبيح هذا العمل ، ولردع المؤمنين من الإقبال عليه ، "والمراد من - الأكل - ما يعم الأخذ والاستيلاء ، وعبر به لأنه أهم الحوائج"^(٢) . وبالرغم من أن المقام مقام نهى للمسلمين عن بعض الأعمال التي حرمها الله ، إلا أن ذلك كله يأتي بأسلوب خطابي لين ، ليناسب الفئة المخاطبة .

ويعود الخطاب لتكليف المؤمنين ودعوتهم إلى التصدي للكفار في قوله تعالى :

﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾^(٣) .

١. الآية ١٨٨ من سورة البقرة .

٢. الألويسي، أبو الفضل : روح المعاني ، ج٢، ص٦٩-٧٠ .

٣. الآية ١٩٠ من سورة البقرة .

ويأتي هذا الخطاب دعوة للمؤمنين ليقاتلوا في سبيل الله ، ولكنه في الوقت نفسه ينهاهم عن الاعتداء مؤكداً ذلك بقوله : " إن الله لا يحب المعتدين" مؤكدة بحرف التوكيد "إن" ، وفي هذا تهديد ووعيد لأولئك المعتدين من الكفار . فقد ضم هذا الخطاب الأمر والنهي عن طريق الترغيب والترهيب في السياق نفسه .

ويتبعه خطاب آخر يؤكد على ضرورة مقاتلة الكفار في قوله تعالى: ﴿وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تَقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾^(١). ويتكرر الحث على الجهاد لتأكيد في أذهان المؤمنين ، وليبين مدى أهميته . ويتضمن هذا الخطاب تحذيراً شديداً من الفتنة في قوله : " والفتنة أشد من القتل " لبيان مدى خطورتها على الدين الإسلامي ، وحتى لا يتهاون بها المؤمنون . ويأتي حث المؤمنين على القتال درءاً للفتن لا حباً في الاعتداء والقتال .

ويأتي الخطاب التالي ليعبر عن المعنى نفسه في قوله تعالى : ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾^(٢) . والتكرار تأكيد على ضرورة القتال لمحاربة الفتن، ثم تأتي سماحة هذا الدين واضحة بأسلوب خطابي حانٍ من خلال قوله تعالى: ﴿فَإِنْ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾. وفي وصفهم بالظالمين زيادة في تشنيعهم وتقييحهم .

ويتكرر التأكيد على المعنى السابق من خلال الخطاب التالي في قوله تعالى : ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ* وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾^(٣). وقد عبر عن التصدي للمعتدين بقوله: " فاعتدوا

١. الآية ١٩١ من سورة البقرة .

٢. الآية ١٩٣ من سورة البقرة .

٣. الأيتان ١٩٤-١٩٥ من سورة البقرة .

عليه بمثل ما اعتدى عليكم" حيث "سمى جزاء العدوان عدواناً من قبيل "المشاكلة" (١) كما عبّر أيضاً عن الأنفس بالأيدي في قوله: "ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة" على سبيل المجاز .

ونلاحظ مما سبق أنه " لا يذكر في القرآن الكريم لفظ القتال أو الجهاد إلا ويقرن بكلمة "سبيل الله" وفي ذلك دلالة واضحة على أن الغاية من القتال شريفة نبيلة" (٢) .

ثم ينتقل الخطاب من حض المؤمنين على الجهاد إلى بيان فريضة الحج لهم في قوله تعالى : ﴿ الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمُهُ اللَّهُ وَتَزُودُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُوا يَا أُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ (٣) . وهذه دعوة صريحة للمؤمنين ليتحلوا بكامل الآداب والأخلاق في بيت الله الحرام ، ليناسب الغرض الذي جاءوا من أجله ، وليتحلوا بهذه الآداب أينما حلوا ، وهذه غاية يسعى القرآن الكريم إلى تحقيقها في كل إنسان مؤمن ليكون قدوة . وقد عبّر عن أداء العبادات وتقوى الله بقوله : " تزودوا" ولذلك دلالاته الواضحة فهذه العبادات هي الزاد الحقيقي للروح المؤمنة ، مؤكداً على ذلك بقوله تعالى : "واتقون يا أولي الألباب" ، بعد أن بين أن خير هذا الزاد هو تقوى الله سبحانه وتعالى. وفي قوله سبحانه : " فلا رفث ولا فسوق " أسلوب بلاغي "صيغته نفي وحقيقته نهي أي لا يرفث ولا يفسق وهو أبلغ من النهي الصريح لأنه يفيد أن هذا الأمر لا ينبغي أن يقع أصلاً فإن ما كان منكراً مستقبلاً في نفسه ففي أشهر الحج يكون أقبح وأشنع ففي الإتيان بصيغة الخبر وإرادة النهي مبالغة واضحة" (٤) .

ويتخذ الخطاب أسلوباً جديداً في تحذير المؤمنين من الشيطان ودعوتهم إلى التمسك بدينهم في قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السَّلَامِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ

١. الصابوني ، محمد علي : صفوة التفاسير ، ج ١ ، ص ١٢٧ .

٢. الصابوني ، السابق ، ج ١ ، ص ١٢٧ .

٣. الآية ١٩٧ من سورة البقرة .

٤. الصابوني ، السابق ، ج ١ ، ص ١٣١ .

لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ * فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ الْبَيِّنَاتُ فَاَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١﴾ .
 ويصدر الخطاب بنداؤ المؤمنين ب "يا أيها الذين آمنوا" تشریفاً لهم ، وإشارة إلى أهمية ما سيقال .
 وقد جاء تحذير المسلمين من الشيطان بقوله : " إنه لكم عدوٌّ مبين " زيادة في تقبيحه ، وبياناً لعظم
 خطورته على المؤمنين ، وفي قوله بعد ذلك فاعلموا أن الله عزيز حكيم" تهديد خفي للذين يزلون
 بعد معرفة الحق .

ويأتي الخطاب التالي بشكل آخر ، إذ يكشف لنا نفسية الإنسان في قوله تعالى : ﴿ كُتِبَ
 عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ
 شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (٢) . فالإنسان بطبيعته يحب الحياة ويكره القتال والموت .
 ولكن يأتي الخطاب القرآني لترغيب الناس في القتال في سبيله عز وجل مبيناً لهم أن هذا القتال فيه
 نفع وخير كبيران لهم مستخدماً أسلوب الترغيب ، "وهكذا يربي الإسلام الفطرة ، فلا تمل
 التكليف" (٣) . وفي قوله : " وهو كرهة لكم " عبر بصيغة عن صيغة أخرى إذ "وضع المصدر
 موضع اسم المفعول "كره" مكان "مكروه" للمبالغة" (٤) . وقد جمع في هذا الخطاب بين عدة أضداد
 على سبيل الطباق : " الخير والشر ، الحب والكره " ، وهو أسلوب بلاغي يكسو المعاني قوة
 وجمالاً .

ويلجأ الخطاب إلى أسلوب مختلف ناصحاً من خلاله المؤمنين اختيار الزوجات الصالحات
 في قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَنَّ وَلَا أُمَّةً مُؤْمِنَةً خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ
 وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَئِكَ يَدْعُونَ
 إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ (٥) . فمن

١. الأيتان ٢٠٨-٢٠٩ من سورة البقرة .

٢. الآية ٢١٦ من سورة البقرة .

٣. قطب ، سيد : في ظلال القرآن ، ج ٢ ، ص ٣٢٤ .

٤. الصابوني ، محمد علي : صفوة التفاسير ، ج ١ ، ص ١٣٩ .

٥. الآية ٢٢١ من سورة البقرة .

خلال هذا الخطاب يبين لنا سبحانه وتعالى الدستور الذي يجب أن تقوم عليه الأسرة المسلمة ، وقد امتاز الخطاب القرآني بلمسة حانية عند الحديث عن نظام الأسرة والزواج ، ويأتي هذا الخطاب لينهي المؤمنين عن زواج المشركين ثم يتبع هذا سبباً مقنعاً. وفي قوله : "أولئك" مستخدماً اسم الإشارة البعيد، للدلالة على بعدهم عن الدين الإسلامي ومدى ضلالهم . ويقدم هذا الخطاب لنا حالين متقابلين: " أولئك يدعون إلى النار " تنفيراً منهم، "والله يدعو إلى الجنة والمغفرة" ترغيباً لهم. وفي قوله : " ولأمة مؤمنة خير من مشركة " إيجاز بالحذف ، والتقدير : ولأمة مؤمنة خير من حرة مشركة ، وهذه الجملة تعليل للنهي وترغيب في مواصلة المؤمنات صُدْر بلام الابتداء الشبيهة بلام القسم في إفادة التأكيد مبالغة (١) . ويختتم الخطاب بتذييل في قوله تعالى : " ويبين آياته للناس لعلهم يتذكرون " وجيء بهذا التذييل "لنصح والإرشاد"(٢)

ثم يتخذ الخطاب أسلوباً جديداً في نصح المؤمنين وبيان ما هو خير لهم في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصَلِّحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ* لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ (٣) . ويبدأ الخطاب ناصحاً المؤمنين بأسلوب لين هادئ ثم لا يلبث أن يتحول إلى زجر وترهيب في قوله تعالى : "والله سميع عليم " . ويعود الخطاب لطيفاً مرة أخرى ، ويبلغ الهدوء ذروته في قوله : "والله غفور حلیم" وفي هذا تطمين للمؤمنين الذين حلفوا دون عقد النية على هذه الأيمان والأفعال . وصرح بالإسم الجليل لإظهار المهابة والروعة منه سبحانه .

ثم يأتي الخطاب التالي ليحث المؤمنين على المحافظة على الصلاة في قوله تعالى : ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوَسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ (٤) . وقد بدأ الخطاب بالعام ثم خص الصلاة الوسطى بعد ذلك ، وقد خص الصلاة من بين سائر العبادات لأنها أساس العبادات ، وقد قدّم اسم الجلالة في قوله : " وقوموا لله قانتين " إجلالاً وتشريفاً.

١. الألويسي، أبو الفضل : روح المعاني ، ج ٢ ، ص ١١٨ .

٢. الألويسي، السابق، ج ٢، ص ١٢٠ .

٣. الآيتان ٢٢٤-٢٢٥ من سورة البقرة .

٤. الآية ٢٣٨ من سورة البقرة .

ويأتي الخطاب التالي مبيناً أهمية النفقة في سبيله عز وجل في قوله تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقرضُ اللهُ قَرْضاً حَسَنًا فَيضاعِفُهُ لَهُ أَضعافاً كَثيرةً وَاللهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرجَعُونَ﴾^(١). وقد بدأ الخطاب بالاستفهام ، إذ "صدر سبحانه الآية بالطف أنواع الخطاب ، وهو الاستفهام المتضمن معنى الطلب ، وهو أبلغ في الطلب من صيغة الأمر"^(٢). وقد عبر عن الإنفاق في سبيله بالقرض ، لما توحى هذه اللفظة من ترغيب للمؤمنين ، فهذه النفقة سترد لهم مضاعفة ، وفي هذا معالجة لنفسية الإنسان في حبه للمال واكتنازه ، لذلك جاء الخطاب بأسلوب الترغيب هذا حثاً لهم على الإنفاق في سبيل الله . وقد "أسند الاستقراض إلى الله في قوله (من ذا الذي يقرض الله) وهو المنزه عن الحاجات ترغيباً في الصدقة"^(٣).

وتتتابع الخطابات التي تحث على الصدقة والإنفاق في سبيل الله في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمْ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خِلاَةَ وَلَا شَفَاعَةَ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾^(٤). ويبدأ الخطاب بالنداء ب"يا أيها الذين آمنوا" تشريراً للمؤمنين ، ولفناً لانتباههم . ويتضمن هذا الخطاب ترغيب المؤمنين بالنفقة ، وفي الوقت نفسه ترهيب الكافرين وتحذيرهم في قوله: "والكافرون هم الظالمون" ، وهذا تأكيد على العذاب الشديد الذي ينتظرهم ، ولم يكتف الخطاب بوصفهم بالكافرين ، وإنما أكد على ذلك بالظالمين زيادةً في تقييحهم وزجرهم .

ويتبعه خطاب آخر يحث المؤمنين على النفقة وينهاهم عن إتباع صدقاتهم باليمن أو الأذى في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾^(٥). ومن خلال هذا الخطاب نستشف الهدف من

١. الآية ٢٤٥ من سورة البقرة .

٢. ابن القيم : شمس الدين أبو عبدالله محمد بن أبي بكر: التفسير القيم ، حققه محمد حامد الفوق، دار الكتب العلمية، بيروت ، ص ١٤٩ .

٣. الصابوني ، محمد علي : صفوة التفاسير ، ج ١، ص ١٥٩ .

٤. الآية ٢٥٤ من سورة البقرة .

٥. بعض الآية ٢٦٤ من سورة البقرة .

الصدقة ، وهو تطهير النفوس وتزكيتها ، فهذه النفقة المتبوعة بالمن والأذى مرفوضة معبراً عن ذلك بأسلوب التحذير والوعيد والتهديد ، زجراً لهم عن هذه النفقة .

ويأتي الخطاب التالي لبيّن للمسلمين كيفية الإنفاق في قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِأَخِيذِهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾^(١) . ويبدأ الخطاب بـ "يا أيها الذين آمنوا" لتكون صالحة للمؤمنين في كل زمان ومكان . وقد عبّر عن التساهل بقوله : "تغمضوا فيه" وهذا من الألوان البلاغية التي تزيد المعنى قوة وجمالاً . ويختتم هذا الخطاب بقوله تعالى : "إن الله غنيّ حميد" مؤكدة بحرف التوكيد "إن" لتناسب الشك الذي في قلوب بعضهم ، ولتبيين للمؤمنين أنه سبحانه يختبرهم .

ويختلف الأسلوب الخطابي ، حيث يأتي ليكشف لنا نفسية الإنسان الفقير مراعيّاً لها وطالباً من المؤمنين مراعاتها في قوله تعالى : ﴿ إِنْ تَبَدُّوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾^(٢) . وقد جاء هذا الخطاب لمراعاة نفسية الإنسان الفقير الذي يتحرج من أخذ الصدقات ، لذلك دعا الله سبحانه وتعالى عباده المؤمنين أن يخفوا صدقاتهم ، وفي قوله : "والله بما تعملون خبير" تشجيع للمؤمنين على إخفاء الصدقة . ومن خلال هذا الخطاب نستشف رحمته سبحانه وتعالى بعباده جميعاً ، وهذا من شأنه أن ينمي في الإنسان المؤمن مراعاة أخية الفقير .

ويأتي الخطاب التالي ليكشف عن الوجه المقابل للإنفاق والصدقة ، محذراً المؤمنين من التعامل بالربا في قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ

١. الآية ٢٦٧ من سورة البقرة .

٢. الآية ٢٧١ من سورة البقرة .

لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ * وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ^(١) . ويصدر الخطاب بتشريف المؤمنين ، وفي هذا الخطاب تهديد رعيب لكل من يتعامل بالربا ، وهذا واضح في قوله تعالى : " فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله " ، وجيء بحرب نكرة ، " وتكثير -حرب- للتعظيم"^(٢) ، وليبيان عظم هذه الحرب فهي من الله ورسوله . ثم يعود الخطاب إلى نصيحة المؤمنين مظهراً لهم الوجه المضيء ، وهو الصدقة ، داعياً إياهم إلى التصديق بأسلوب يمتاز بالملاطفة والهدوء . ففي هذا السياق تهديد ووعيد ثم ملاطفة وهدوء ، وهذا من بلاغة الأسلوب القرآني الذي يجمع بين الأضداد في تناسق بديع .

وتختتم خطابات المؤمنين في سورة البقرة بدعوة المؤمنين إلى كتابة الذنوب فيما بينهم في قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَليَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسَ مِنْهُ شَيْئاً^(٣) .

يأتي هذا الخطاب بعد تحريم الربا، وفيه تحذير ووعيد لمن يزور كتابة هذه العقود في قوله تعالى: " وليتق الله ربه" ، وقد "جمع ما بين الاسم الجليل والنعت الجميل مبالغة في التحذير"^(٤) . وقد امتازت آيات التشريع بالإعجاز ، "إن الإعجاز في صياغة آيات التشريع هنا لهو الإعجاز في صياغة آيات الإيحاء والتوجيه . بل هو أوضح وأقوى لأن الغرض هنا دقيق يحرفه لفظ واحد ، ولا ينوب فيه لفظ عن لفظ . ولولا الإعجاز ما حقق الدقة التشريعية المطلقة والجمال الفني المطلق على هذا النحو الفريد"^(٥) .

١. الآيات ٢٧٨-٢٧٩ وبعض الآية ٢٨٠ من سورة البقرة .

٢. الألوسي، أبو الفضل : روح المعاني، ج٣، ص٥٣.

٣. بعض الآية ٢٨٢ من سورة البقرة

٤. الصابوني ، محمد علي : صفوة التفاسير، ج١، ص١٧٩ .

٥. قطب ، سيد : في ظلال القرآن، ج٣ ، ص٤٩١ .

د - خطاب الكافرين :

امتاز خطاب الكافرين في القرآن الكريم بعامة وفي سورة البقرة بخاصة بالزجر والتهديد والوعيد ، ووصفهم بالكافرين والظالمين خلال مخاطبتهم تحذيراً لهم ، وتنفيراً منهم .

وأول خطابات الكافرين في سورة البقرة تأتي لتصفهم في قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ * يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ * فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾^(١) .

يبرز لنا هذا الخطاب نموذجاً من الناس ، وهم المنافقون ، محذراً منهم أشد تحذير . وقد عظفت الجملة الاسمية : " وما هم بمؤمنين " على الجملة الفعلية : " قالوا آمنا بالله وباليوم الآخر " ، فإن قيل : كيف جاء قولهم " آمنا " جملة فعلية " وما هم بمؤمنين " جملة اسمية فهلاً طابقتها ؟ فالجواب : أن قولهم " وما هم بمؤمنين " أبلغ وأكد في نفي الإيمان عنهم من لو قال ما آمنوا " (٢) . وقد عبر عن الحقد والنفاق في نفوسهم بقوله تعالى " في قلوبهم مرض " ، فهو مرض نفسي متأصل بهم . وقد جاء هذا الخطاب بتحذير حاد لهؤلاء المنافقين في قوله تعالى : " فزادهم الله مرضاً ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون " ، وبيان مصيرهم بهذه الصورة المزرية ؛ رداً للناس كافة عن النفاق والخداع والغش .

ويأتي الخطاب التالي ليكمل لنا صورة هؤلاء المنافقين في قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ * أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴾^(٣) . ومن خلال هذا الخطاب نلاحظ مدى جحودهم وطغيانهم في ردهم : " إنما نحن مصلحون " ، فهم يصرون على ما هم عليه ويعلنونه . وقد جاء الرد عليهم واضحاً في قوله تعالى : " ألا إنهم هم

١ . الآيات ٨-٩-١٠ من سورة البقرة .

٢ . الكلبى ، محمد بن أحمد : التسهيل لعلوم التنزيل ، ج ١ ، ص ٣٧ .

٣ . الآيات ١١-١٢ من سورة البقرة .

المفسدون" ، إذ "جاءت الجملة مؤكدة بأربع تأكيدات (ألا) التي تفيد التثبيته، و (إن) التي هي للتأكيد، وضمير الفصل (هم) ثم تعريف الخبر (المفسدون)... وهذا ردٌ من الله تعالى عليهم بأبلغ ردٍ وأحكمه" (١) .

ولم تكتمل بعد صورة هؤلاء المنافقين فتتتابع الخطابات لتكتمل لنا هذه الصورة في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لَّا يَعْلَمُونَ * وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ * اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ (٢) .

نلاحظ من خلال هذا الخطاب جهل الكفار بآداب المخاطبة ويظهر ذلك من خلال ردهم على المؤمنين بقولهم: "أنؤمن كما آمن السفهاء" إذ يستهلون كلامهم بالاستفهام الإنكاري لاستبعادهم لهذا الإيمان ، كما يظهر استخفافهم بالمؤمنين. ويصور لنا هذا الخطاب صورة المنافقين تصويراً حسيماً يجعلنا نتخيلهم عندما يلتقون بالمؤمنين فيعلنون أنهم آمنوا ، وما يلبثون أن يلتقوا شياطينهم ليكشفوا الخداع والضلال الذي يتصفون به . وفي قوله تعالى: "اللـه يستهزئ بهم" على سبيل المجاز ، حيث سمى جزاء استهزائهم استهزاءً ويبلغ التحذير ذروته عندما يصل الخطاب إلى قوله تعالى: " ويمدهم في طغيانهم يعمهون" جزاء جحودهم وطغيانهم.

وتتوالى صفات الكفار عبر خطابات سورة البقرة لتكتمل صورتهم وتعلن صفاتهم تحذيراً منهم في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (٣) . وقد عبّر عن إبطال العهود والإخلال بها بالنقض على سبيل الاستعارة ، "وهذا من أسرار البلاغة ولطائفها أن يسكتوا عن ذكر الشيء

١. الصابوني ، محمد علي : صفوة التفاسير ، ج ١ ، ص ٣٨ .

٢. الآيات ١٣-١٤-١٥ من سورة البقرة .

٣. الآية ٢٧ من سورة البقرة .

المستعار ثم يرمزوا بذكر شيء من روادفه فينبهوا بتلك الرمزة على مكانه ^(١) ، وفي قوله "أولئك" إشارة إلى مدى بعدهم عن الهدى وانغماسهم في الضلال البعيد ، وزيادة في تفريعهم وصفهم بالفاسقين توبيخاً لهم على أعمالهم هذه .

ويتكرر تهديد الكفار في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ ^(٢) ، ويأتي تحذيرهم بأسلوب حاد ، فهم أصحاب النار ، ولهذا الوصف دلالاته في عظم العذاب الذي ينتظرهم ، فهم ملازمون للنار ، وخالدون فيها .

ويتبعه خطاب موجه إلى بني إسرائيل في قوله تعالى: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ ^(٣) . وقد جاء خطاب اليهود ببني إسرائيل في مواضع كثيرة من القرآن الكريم ، ويرى الزركشي السر في ذلك: " أن القوم لما خوطبوا بعبادة الله ذكروا بدين أسلافهم ، موعظة لهم وتوبيخاً من غفلتهم ، فسموا بالاسم الذي فيه تذكرة بالله. ويأتي الخطاب بصدد تذكيرهم بنعمة الله ، إذ جعل فيهم أنبياء ؛ ومقصد هذا التذكير التوصل إلى طلب إيمانهم بالقرآن الكريم .

ثم يأتي الخطاب بأسلوب مختلف في قوله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ^(٤) ، إذ يستهل الخطاب بالاستفهام، وهو استفهام تفريع وتوبيخ ^(٥) . وفي قوله تعالى: " وأنتم تتلون الكتاب" تفريعاً لهم ، " والمراد التبكييت وزيادة التفتيح" ^(٦)

١. الألويسي، أبو الفضل : روح المعاني، ج ١، ص ٢١٠

٢. الآية ٣٩ من سورة البقرة .

٣. الآية ٤٠ من سورة البقرة .

٤. الزركشي، بدر الدين: البرهان في علوم القرآن، ج ١، ص ١٦١ .

٥. الآية ٤٤ من سورة البقرة .

٦. الكلبي ، محمد بن أحمد: التسهيل لعلوم التنزيل، ج ١، ص ٤٦ .

٧. الألويسي، السابق، ج ١، ص ٢٤٨

ويزداد توبيخهم بقوله تعالى: " أفلا تعقلون" وفيه استفهام آخر للإنكار والتوبيخ ، من هنا نلاحظ أن تهديد الكافرين وتوبيخهم جاء في معظم الخطابات الموجهة إليهم بأساليب بلاغية متنوعة .

ويأتي الخطاب التالي بلون آخر من ألوان التهديد والوعيد للكافرين في قوله تعالى: ﴿ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ ﴾^(١) .

يبدأ الخطاب بتقريع شديد ، وفي قوله: " يكتبون الكتاب بأيديهم " تأكيد على تحريفهم الكتاب ، وزيادة في التأكيد يكررها في السياق نفسه في قوله: " فويل لهم مما كتبت أيديهم " . ويكرر لفظة "ويل" لتأكيد العذاب الذي ينتظرهم . ونلاحظ أن القرآن الكريم يصف الكفار بصفات تزيد من تقيحهم وتشنيعهم ، وهي صفات متنوعة منها: المفسدون ، والسفهاء ، والخاسرون ، وكلها صفات تطوي على تقريع وتهديد . وفي ذلك تحذير للمؤمنين منهم .

ويعود الخطاب مرة أخرى ليؤكد لنا جهل الكفار بأدب الخطاب في قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا لَنْ نَمَسَّنَا النَّارَ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾^(٢) . ويأتي الخطاب على شكل حوار بينهم وبين سيدنا محمد -صلى الله عليه وسلم - وفي قولهم: " لن تمسنا النار" تأكيد منهم أنهم لن يمكثوا فيها طويلاً ، وقوله: "معدودة" دلالة على قلتها . ويأتي الرد عليهم جازماً على لسان سيدنا محمد - صلى الله عليه وسلم - بالاستفهام: " اتخذتم عند الله عهداً " والاستفهام هنا "على سبيل الإنكار والتوبيخ"^(٣) . ويختتم الخطاب بقوله: " فلن يخلف الله عهده" وهذا تعريض بالكفار الذين يخلفون عهودهم .

ويأتي الخطاب التالي متوعداً الكافرين في قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ

١. الآية ٧٩ من سورة البقرة .

٢. الآية ٨٠ من سورة البقرة .

٣. الصابوني ، محمد علي : صفوة التفاسير، ج ١، ص ٧٢ .

وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَىٰ تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ * أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١﴾ . والخطاب هنا لبني إسرائيل توبيخاً وزجراً لهم على ما قاموا به من كفر وطمغيان ، ويأتي الخطاب بالاستفهام الإنكاري في قوله تعالى : " أفتمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض " ، وهذا زيادة تفرغ لهم ، فالخطاب يزداد حدة باستعراض هذه المعاصي . ثم نلاحظ استخدام أسلوب الالتفات من الخطاب إلى الغيبة في قوله : " أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة " .

ويأتي الخطاب التالي مبيناً مدى جحودهم وطمغيانهم معلنين ذلك في قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا قَوْلُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ (٢) . ويأتي الخطاب هنا على لسان الكفار معلنين كفرهم ، ويأتي الرد عليهم جازماً وبلغته التهديد والوعيد في قوله : " بل لعنهم الله بكفرهم " ، و"فيه التفات من الخطاب إلى الغيبة إعرافاً عن مخاطبتهم وإيعاداً لهم عن عز الحضور" (٣) ، وفي هذا دليل غضبه سبحانه وتعالى عليهم . ويأتي ردهم هذا "تئيساً لمحمد - صلى الله عليه وسلم - وللمسلمين . من دعوتهم إلى هذا الدين أو تعليلاً لعدم استجابتهم لدعوة الرسول" (٤) ، وقوله : " غلف" لها دلالتها ؛ فقد استفدت هذه الكلمة كل معاني التعنت والحقد لدى الكافرين .

ويتوالى زجر الكافرين وتوبيخهم عبر خطابات سورة البقرة ، ففي قوله تعالى : ﴿ بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يَنْزِلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ (٥) . يبين لنا سبحانه وتعالى من خلال هذا الخطاب سبب عذابهم وإهانتهم ، حيث "اسندت الإهانة إلى العذاب فقال (عذاب مهين) لأن الإهانة

١. الأيتان ٨٥-٨٦ من سورة البقرة .

٢. الآية ٨٨ من سورة البقرة .

٣. الأوسى، أبو الفضل : روح المعاني، ج ١، ص ٣١٨

٤. قطب ، سيد : في ظلال القرآن، ج ١، ص ١١٧-١١٨

٥. الآية ٩٠ من سورة البقرة .

تحصل بعذابهم ، ومن أساليب البيان إسناد الأفعال إلى أسبابها^(١) . وقد عبر عن بيع نفوسهم بالاشتراء تعبيراً بلاغياً على سبيل الاستعارة، فالأنفس لا تباع ولا تشتري ؛ لبيان مدى ضلالهم. وقد جاء التعبير بصيغة المضارع في قوله: " أن يكفروا بما أنزل الله ؛" للإفادة الاستمرار على الكفر فإنه الموجب للعذاب المهين^(٢) . وقد خص العذاب بالكافرين ، تهديداً لهم وردعاً للناس .

ويأتي الخطاب التالي بشكل آخر إذ يخاطبهم بواسطة سيدنا محمد -صلى الله عليه وسلم- مستكراً ما يقومون به في قوله تعالى: ﴿ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ﴾^(٣) .

لقد خاطب القرآن الكريم الكافرين بالواسطة في قوله: "قل"، وعدم توجيه الكلام لهم مباشرة؛ إهمالاً لهم وإعراضاً عنهم، وإسقاطاً لهم من رتبة الخطاب. ويبدأ خطاب الرسول - صلى الله عليه وسلم- للكفار بالاستفهام الإنكاري ، "تبكيتاً لهم حيث قتلوا الأنبياء مع ادعاء الإيمان بالتوراة وهي لا تسوغه"^(٤) ، وفي قوله: " إن كنتم مؤمنين" زيادة في التوبيخ والتشكيك بإيمانهم الذي يدعون به . وفي قوله تعالى: " ولقد جاءكم موسى بالبينات " لتذكيرهم بموقفهم السابق من سيدنا موسى - عليه السلام - ويختتم الخطاب بالتهديد والوعيد في قوله: " وأنتم ظالمون".

ثم يتبعه خطاب آخر يبين إصرارهم على هذا الجحود في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَأَسْمِعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِسْمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيْمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾^(٥) .

"والسياق هنا يلتفت من الخطاب إلى الحكاية .. يخاطب بني إسرائيل بما كان منهم ، ويلتفت إلى المؤمنين - وإلى الناس جميعاً - فيطلعهم على ما كان منهم .. ثم يلقي الرسول - صلى الله عليه

١. الصابوني ، محمد علي : صفوة التفسير ، ج ١ ، ص ٧٩ .

٢. الألويسي، أبو الفضل : روح المعاني، ج ١ ، ص ٣٢٢ .

٣. بعض الآية ٩١ والآية ٩٢ من سورة البقرة .

٤. الألويسي، السابق، ج ١ ، ص ٣٢٤ .

٥. الآية ٩٣ من سورة البقرة .

وسلم - أن يجبههم بالترذيل والتبشيع لهذا اللون من الإيمان العجيب الذي يدعونه" (١) . ولقوله تعالى - على لسان بني إسرائيل - : "سمعنا وعصينا" دلالاته ، فقولهم سمعنا بالسنتهم ، ولكن عصينا نتيجة أعمالهم . فليس هناك تناقض كما قد يوحيه النص للوهلة الأولى ، ولكنها الحقيقة .

ثم يأتي الخطاب بصورة منفردة مبينة فبح ما قاموا به في قوله تعالى : " وأشربوا في قلوبهم العجل" صورة حية موحية ، و " هنا تبدو قيمة التعبير القرآني المصور ، بالقياس إلى التعبير الذهني المفسر .. إنه التصوير .. السمة البارزة في التعبير القرآني الجميل" (٢) ، وقوله : " في قلوبهم" زيادة تقييح وتشنيع لهذه الصورة ، والعجل لا يشرب في القلوب ، وإنما ذكره وأراد حبه . وفي قوله : " بنسما يأمركم به إيمانكم" أسند الأمر إلى الإيمان ، وهذا الإسناد "تهكم بهم" (٣) . فالإيمان لا يأمر على الحقيقة . وقد استخدم أسلوب البيان في هذا الخطاب ليزداد قوة ووضوحاً .

وتتوالى الخطابات الموجهة إلى بني إسرائيل على لسان سيدنا محمد -صلى الله عليه وسلم - في قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الآخِرَةُ خَالِصَةً مِّنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ (٤) . وجاء هذا الخطاب رداً على تقولاتهم الكاذبة أن الجنة لهم فقط ، وفي قوله : " فتمنوا الموت" أمر لهم " على وجه التعجيز والتبكيث" (٥) . وقوله : " إن كنتم صادقين" تعريض بكذبهم ، فلم يعبر عن ذلك بقوله : إنكم كاذبون ، وإنما لجأ إلى أسلوب التعريض بهم . وينتهي الخطاب بقوله تعالى : " والله عليم بالظالمين" ، فيها زجر وتقريع لهم .

ويتبعه خطاب آخر يؤكد فيه بنو إسرائيل أن الجنة لهم في قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ

١. قطب ، سيد : في ظلال القرآن، ج ١ ، ص ١٢٠ .

٢. قطب ، سيد : السابق ، ج ١ ، ص ١٢١ .

٣. الصابوني ، محمد علي : صفوة التفاسير ، ج ١ ، ص ٨١ .

٤. الآيتان ٩٤-٩٥ من سورة البقرة .

٥. الكلبي ، محمد بن أحمد: التسهيل لعلوم التنزيل، ج ١ ، ص ٥٤ .

إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ^(١) . وهنا أيضاً يأتي خطاب الكافرين بواسطة ، حتى لا ينالوا شرف المخاطبة من الله سبحانه وتعالى مباشرة . وفي رد الرسول - صلى الله عليه وسلم - بقوله : " قل هاتوا برهانكم " أمر لهم بإثبات ادعائهم و "الأمر هنا للتبكيك والتقريع"^(٢) . وفي هذا الخطاب تتكرر جملة "إن كنتم صادقين" تعريضاً بكذبهم. ونلاحظ أن خطاب الكافرين ينتهي-في الغالب-بعبارات تزيد من التشكيك بصدقهم مثل : "إن كنتم مؤمنين" و"إن كنتم صادقين" .

وتتتابع الخطابات لتكشف صفات وميزات الكافرين تحذيراً منيماً في قوله تعالى : ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾^(٣) . وفي هذا الخطاب إيجاز بالحذف في قوله تعالى : " وقالوا كونوا هوداً أو نصارى " ، وأو هنا للتنويح المقال - لا للتخيير-^(٤) ، فكل فريق منهم يقول لأنصاره ، "أي قال اليهود كونوا يهوداً وقال النصارى كونوا نصارى"^(٥) . ويأتي الرد جازماً بواسطة سيدنا محمد - صلى الله عليه وسلم - ببطلان ما قالوه .

ويأتي الخطاب التالي ليكمل الرد على الكفار في قوله تعالى : ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمْ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾^(٦) .

ويشدد الخطاب هنا ويمتليء بالزجر والإنكار والترهيب لهؤلاء الكفار رداً على مقولاتهم

١. الآية ١١١ من سورة البقرة .

٢. الصابوني ، محمد علي : صفوة التفاسير ، ج ١ ، ص ٨٩ .

٣. الآية ١٣٥ من سورة البقرة .

٤. الألويسي، أبو الفضل: روح المعاني، ج ١، ص ٣٩٢.

٥. الصابوني ، السابق ، ج ١، ص ١٠٠.

٦. الآية ١٤٠ من سورة البقرة .

الكاذبة ، فقد اشتمل الخطاب على الاستفهام الإنكاري في ثلاثة مواضع ليؤكد كذبهم وجحودهم .
ويبلغ الإنكار ذروته في قوله تعالى : " أنتم أعلم أم الله " حيث لا يعطيهم مجالاً للإجابة . وهذا من
بلاغة الأسلوب الخطابي في التعبير عن ضلال الكفار .

ويأتي الخطاب التالي مبيناً مصير الذين ماتوا وهم كفار ؛ تحذيراً للناس كافة من السير
على طريقهم في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ
وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ * خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾^(١) . وقد تم
تقديم لعنة الله سبحانه وتعالى تشريفاً ، ثم تتبعها لعنة الملائكة ثم الناس ، وفي قوله : " يلعنهم الله " .
فيه "التفات" من ضمير المتكلم إلى الغيبة إذ الأصل "تلعنهم" ولكن في إظهار الاسم الجليل (يلعنهم
الله) إلقاء الروعة والمهابة في القلب^(٢) .

ويأتي الخطاب التالي بلون جديد إذ يستحضر لنا حالة الكفار يوم القيامة أي من المستقبل
إلى الحاضر ، لعلمهم يعتبرون في قوله تعالى : ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا
الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ * وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَّبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّأُوا مِنَّا
كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴾^(٣) . يصور لنا الخطاب
مصير الكافرين صورة مؤلمة ، وقد عبّر عما سيحدث في المستقبل بصيغة الماضي ليضع هذه
الصورة أمام أعينهم ، وليدركوا مدى الضلال الذي هم فيه . وللتعبير عنها بالماضي أثر واضح
في النفوس . وينتهي الخطاب بتوبيخهم بلغة حادة في قوله : " وما هم بخارجين من النار " معبراً
عن المعنى بجملة اسمية ، " وإيرادها بهذه الصيغة لإفادة دوام الخلود "^(٤) ، فهي غير مقترنة بزمن
معين تنتهي بانتهائه .

وتختتم خطابات الكافرين في سورة البقرة بخطاب يظهر فيه تحدي الكفار للرسول

١. الأيتان ١٦١-١٦٢ من سورة البقرة .

٢. الصابوني ، محمد علي : صفة التفاسير ، ج ١ ، ص ١٠٩ .

٣. الأيتان ١٦٦-١٦٧ من سورة البقرة .

٤. الصابوني ، السابق ، ج ١ ، ص ١١٢ .

-صلى الله عليه وسلم - في قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُم اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْلَوْكَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾^(١) . ويتضمن هذا الخطاب إصرار الكفار على كفرهم ، ويأتي الرد عليهم بقوله تعالى : " أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون " مستهلاً الرد بالاستفهام ، " للإنكار والتوبيخ والتعجيب من حالهم في تقلدهم الأعمى للأباء " ^(٢) .

١ . الآية ١٧٠ من سورة البقرة .

٢ . الصابوني ، محمد علي : صفوة التفاسير ، ج ١ ، ص ١١٤ .

الفصل الثالث

"المستوى البياني في الخطاب البلاغي"

- | | |
|---------|---------------------------------|
| ٩٠-٧٨ | أ- المستوى الأول : "التشبيه" |
| ١٠٣-٩١ | ب- المستوى الثاني : "الاستعارة" |
| ١١٧-١٠٤ | ج- المستوى الثالث : "المجاز" |
| ١٢٧-١١٨ | د- المستوى الرابع : "الكناية" |

أ- المستوى الأول : "التشبيه"

يعالج هذا الفصل المستوى الفني في الخطاب البلاغي من خلال مستويات أربعة : التشبيه ، والاستعارة ، والمجاز ، والكناية .

أما التشبيه فهو فن من الفنون البلاغية ، يدل على سعة الخيال ، وجمال التصوير ، ويزيد المعنى قوة ووضوحاً ، ويعرفه قدامة بن جعفر بقوله : " إنما يقع بين شينين بينهما اشتراك في معان تعمهما ، ويوصفان بها واقتراق في أشياء ينفرد كل واحد منهما بصفتهما ، وإذا كان الأمر كذلك فأحسن التشبيه هو ما أوقع بين شينين اشتراكهما في الصفات أكثر من انفرادهما فيها ، حتى يدني بهما إلى حال الاتحاد " (١) ، ويعرفه ابن رشيق بأنه : " صفة الشيء بما قاربه وشاكله ، من جهة واحدة أو جهات كثيرة ، لا من جميع جهاته ؛ لأنه لو ناسبه مناسبة كلية كان إياه" (٢) ، أما عبد القاهر فيقول : " اعلم أن الشينين إذا شُبَّه أحدهما بالآخر كان ذلك على ضربين : أحدهما أن يكون من جهة أمر يبين لا يحتاج فيه إلى تأويل ، والآخر أن يكون الشبه محصلاً بضرب من التأويل" (٣) .

وقد عالجت سورة البقرة المعاني التي يراد ترسيخها في ذهن الناس عن طريق التشبيه . وأول تشبيهات سورة البقرة قوله تعالى : ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ * صُمُّ بَكْمٌ عُمِّي فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ * أَوْ كَصَيْبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾ (٤) .

١. قدامة بن جعفر ، أبو الفرج : نقد الشعر ، تحقيق وتعليق محمد عبد المنعم خفاجي ، دار الكتب العلمية -

بيروت ، ص ١٢٤

٢. القيرواني ، أبو علي الحسن بن رشيق : العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ، حققه محمد محيي الدين

عبد الحميد ، مكتبة السعادة بمصر ١٩٦٣م ، ط ٣ ، ج ١ ، ص ٢٨٦ .

٣. الجرجاني ، عبد القاهر : أسرار البلاغة ، تحقيق هـ. ريتز ، ط ٣ ، ص ٨٠-٨١ .

٤. الأيات ١٧-١٩ من سورة البقرة

فنحن في هذا التشبيه نقف أمام لوحيتين فنييتين مصحوبتين بالحركة والصوت واللون ، ونلاحظ أن عناصر هاتين اللوحيتين مأخوذة من الطبيعة التي لها أثرها في نفس الإنسان . وقد استخدمت لفظة "النور" بدل " الضوء" ؛ لأن النور أصل الضوء ، وقال : "بنورهم" ولم يقل "بنارهم" ؛ لأن "النار فيها إشراق وإحراق ، فذهب الله بما فيها من الإشراق وهو "النور" وأبقى ما فيها من الاحراق وهو "النارية" ! (١) . " وقال سبحانه وتعالى : ﴿ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ ﴾ ، ولم يقل : ذهب نورهم . وفيه سرٌ بديع ، وهو انقطاع سر تلك الخاصة التي هي للمؤمنين من الله تعالى ، فإن الله تعالى مع المؤمنين " (٢) .

ثم تأتي فكرة التدرج في الخطاب في قوله تعالى : ﴿ صُمِّمُكُمْ عُمِّي ﴾ للدلالة على عظم ما ألوا إليه ؛ فهم لا يسمعون ، ولا يتكلمون ، ولا يبصرون ، فالخطاب هنا يزداد شدة حين يقول تعالى : ﴿ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾ فكانهم لم يكتفوا بوضع الأنامل -وهي المقصودة هنا- لبيان عظم مصيبتهم . أما الخطاب فيزداد تقرّياً بلغة حادة ، وأسلوب شديد ، لبيان مكانة هؤلاء المنافقين .

ويضم هذا السياق صورتين لتشبيه حال المنافقين ، إذ " أعقبت تفاصيل صفاتهم بتصوير مجموعها في صورة واحدة، بتشبيه حالهم ببيئة محسوسة؛ لأن النفس إلى المحسوس أميل" (٣) ، وقد تداخلت هاتان الصورتان لتتما المعنى المقصود ، ولتنبأ الفكرة في النفس ، فجاء التشبيه ليعبر بأسلوب خطابي بلاغي عن حال المنافقين ، فكان بالإمكان أن يكون الخطاب بلغة عربية معجمية ، تتناسق فيها الألفاظ دون اللجوء إلى التشبيه ، ولكن جاء التشبيه ليعبر بصورة أقوى عن المعنى المقصود ، وبذلك خرج الأسلوب الخطابي من مجرد كلمات معجمية إلى صور ومشاهد حيّة .

١. الصابوني ، محمد علي : صفوة التفاسير ، ج ١ ، ص ٤٠ .

وانظر ابن القيم : التفسير القيم ، ص ١١٦ .

٢. ابن القيم ، المصدر السابق ، ص ١١٥ .

٣. ابن عاشور ، محمد الطاهر : التحرير والتوير ، ج ١ ، ص ٣٠٢ .

"إن الحركة التي تغمر المشهد كله ... لترسم - عن طريق التأثير الإيحائي - حركة التيه والاضطراب والقلق والأرجحة التي يعيش فيها أولئك المنافقون ... فهو مشهد حسي يرمز لحالة نفسية ، ويجسم صورة شعورية وهو طرف من طريقة القرآن العجيبة في تجسيم أحوال النفوس كأنها مشهد محسوس" (١) .

ثم تتوالى الصور التشبيهية في أسلوب الخطاب ، فتأتي بتشبيهين في صورة واحدة جيء بها لبيان قدرة الله تعالى في قوله سبحانه : ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً ﴾ (٢) . ويتسم الخطاب هنا بالهدوء ، فهذه الآيات موجهة للناس كافة لتؤكد قدرته سبحانه ، ونعمه التي لا تعد ولا تحصى ، وتعداد بعض هذه النعم يلائمه الهدوء واللين ، فهي دعوة إلى التدبر .

إذاً يمكن القول بأن الخطاب يختلف باختلاف الغرض ، وباختلاف المخاطب ، فلكل منهما خطاب يتلاءم معه . وهذا من الإعجاز القرآني .

وفي سياق آخر مثلت الصورة التشبيهية قلوب بني إسرائيل في قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (٣) ، فالخطاب في هذه الصورة جاء بلغة حادة ؛ لأنه خطاب تحذير وتقريع لهؤلاء القوم على ما كانوا عليه من الجحود والطغيان ، ولينفر الناس منهم .

ويتدرج الخطاب فيبدأ بتشبيه هذه القلوب بالحجارة ، ثم يقول سبحانه وتعالى : ﴿ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾ ويعطف هذه الآية ندرك مدى قسوة هذه القلوب ، وشدة هذا الخطاب الموجه

١. قطب ، سيد : في ظلال القرآن ، ج ١ ، ص ٥٠-٥١

٢. بعض الآية ٢٢ من سورة البقرة

٣. الآية ٧٤ من سورة البقرة

لبنى إسرائيل ، وبعد أن يصل الخطاب بالصورة التشبيهية إلى ذروته تعود الصورة مرة أخرى إلى نوع من الهدوء ، إذ يبدأ بتفسير هذه الآية حين يبين أن من الحجارة ما تفتته الأنهار ، ومنها ما يشق فتخرج منه المياه ، "والحجارة التي يقيس قلوبهم إليها ، فإذا قلوبهم منها أجدب وأقسى .. هي حجارة لهم بها سابق عهد ، فقد رأوا الحجر تنفجر منه اثنتا عشرة عيناً ، ورأوا الجبل يندك حين تجلى عليه الله . وخرّ موسى صعقاً ! ولكن قلوبهم لا تلين ولا تندي ، ولا تنبض بخشية ولا تقوى .. قلوب قاسية جاسية مجذبة كافرة" (١) فاختيار الحجارة جاء ليعبر عن مدى قسوة هذه القلوب وصلابتها من خلال هذه الصورة الصارمة . ويختتم هذا السياق بقوله تعالى : ﴿ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ وبهذه الآية يعود الخطاب في تدرجه إلى نوع من الشدة تتضمن التهديد والوعيد .

وهناك تدرج " في بيان التفضيل كأنه بين أولاً تفضيل قلوبهم في المساواة على الحجارة التي تتأثر تأثراً يترتب عليه منفعة عظيمة من تفجر الأنهار ، ثم على الحجارة التي تتأثر تأثراً ضعيفاً يترتب عليه منفعة قليلة من خروج الماء ، ثم على الحجارة التي تتأثر من غير منفعة فكأنه قال سبحانه :- قلوب هؤلاء أشد قسوة من الحجارة لأنها لا تتأثر بحيث يترتب عليه المنفعة العظيمة بل الحغيرة بل لا تتأثر أصلاً" (٢) .

ويأتي تشبيه آخر ليكمل صورة الكفار في قوله تعالى : ﴿ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ﴾ (٣) . والخطاب في هذا التشبيه موجه للمشركين الذين قالوا كما يقول اليهود والنصارى . وقد اتسم الخطاب هنا بالزجر والتهديد لهذه الأقوال الباطلة ، "والمعنى هنا أن المشركين كذبوا الأديان كلها اليهودية والنصرانية والإسلام والمقصود من التشبيه تشويه

١. قطب ، سيد "في ظلال القرآن" ج ١ ، ص ١٠٣ .

٢. الألويسي ، أبو الفضل : روح المعاني ، ج ١ ، ص ٢٩٦ .

٣. بعض الآية ١١٣ من سورة البقرة .

المشبه به بأنه مشابه لقول أهل الضلال الضلال البحت^(١) . والوعيد الذي يغلف الخطاب لهذه الفئة يؤكد لنا مصير هذه الأقوال ونهاية هؤلاء القوم الحتمية .

بعد وصف أقوال الكفار يأتي تشبيه آخر يقدم لنا الصورة المقابلة ، وفيه يختلف الخطاب اختلافاً كلياً تبعاً لاختلاف المخاطب حتى تكتمل ثنائية أهل الكتاب والكفار في قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ﴾^(٢) . ويمتاز الخطاب هنا باللين والهدوء ؛ لبيان معرفة أهل الكتاب للحق ، فمعرفتهم بالحق كمعرفتهم بأبنائهم ، "وخص الأبناء لشدة تعلق الآباء بهم فيكون التلمي من رؤيتهم كثيراً فتمكن معرفتهم فمعرفة هذا الحق ثابتة لجميع علمائهم"^(٣) .

وفي سياق آخر تتوالى تشبيهات الكفار في قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ إِندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ ﴾^(٤) . ونحن في هذا السياق أمام خطاب حاد ، خطاب تقريع للكفار الذين سَوَّوا بين حُبهم لأصنامهم وبين حب الله ، فالخطاب هنا ينكر هذه المحبة للأنداد ، وينكر تسويتها بحب الله .

ثم يأتي تشبيه آخر يغلفه التهديد والوعيد لهؤلاء الكفار في قوله تعالى: ﴿ كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ ﴾^(٥) . ولكن هذا التشبيه من قبيل " تشبيه الشيء بنفسه باختلاف الاعتبار كأنه يرام أن يريهم أعمالهم في كيفية شنيعة فلم يوجد أشنع من هذه الحالة"^(٦) ، وذلك ليردعهم عن هذه الأعمال التي صورت بهذه الصورة التي تشوه هذه الأعمال وتبرزها حسرات على أصحابها .

١. ابن عاشور ، محمد الطاهر : التحرير والتنوير ، ج ١ ، ص ٦٧٧

٢. بعض الآية ١٤٦ من سورة البقرة

٣. ابن عاشور ، المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٤٠

٤. بعض الآية ١٦٥ من سورة البقرة

٥. بعض الآية ١٦٧ من سورة البقرة

٦. ابن عاشور : السابق ، ج ٢ ، ص ١٠٠

ثم تتوالى التشبيهات التي تكمل صورة الكافرين التي رسمتها الصور السابقة في قوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمُّ بِكُمْ عُمِّيُّ فَهَمُّ لَا يَعْقِلُونَ﴾^(١). فاللهجة هنا شديدة - لا سيما - وأن الحديث جاء عن الكفار ، فعندما يكون الحديث عنهم تختلف لغة الخطاب ، وتتجه نحو الزجر والترهيب ؛ تفتيراً منهم . ونحن من خلال هذا التشبيه للكفار بالبهائم ندرك ضلال هؤلاء القوم الذين لا ينتفعون بأذنانهم وعيونهم ولا يهتدون . فجاء التشبيه هنا ليعبر بهذا الأسلوب الخطابي عن مدى فظاعة هذه الصورة . وتختتم هذه الصورة بتقريع شديد اللهجة في قوله تعالى: ﴿فَهَمُّ لَا يَعْقِلُونَ﴾ لتكتمل الصورة بما يلائم الكفار . ونلاحظ أنه تم تشبيه الكفار بهذه الصورة المزرية ، تفتيراً منهم ومن أعمالهم ، " والأصل في حسن التشبيه أن يمثل الغائب الخفي الذي لا يعتاد بالظاهر المحسوس المعتاد ، فيكون حسناً لأجل إيضاح المعنى وبيان المراد"^(٢) كما هو الحال مع أغلب هذه التشبيهات .

ولكي تكتمل ثنائية الموقف ، يلجأ التشبيه إلى تصوير مقابل بلغة خطاب مغايرة تتناسب مع الفئة المخاطبة في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾^(٣) . فلكل نوع من الناس أسلوب يخاطبه القرآن به ، وهذه من سمات البلاغة القرآنية ومميزاتها ، إذ جاء الخطاب وفق الفئة الموجه إليها ، ووفق الاعتبار المناسب ، وعلى ما تقتضيه حاله . فالخطاب في هذا التشبيه يتسم بالترغيب للمؤمنين في أداء الفرائض ، حيث جاء التشبيه ليبين أن الصيام كتب على أهل الكتاب قبل المؤمنين . وهدوء الخطاب في هذا السياق يتلاءم مع الغرض منه وهو تكليف المسلمين صوم رمضان . أما عن تشبيه صيامهم بصيام أهل الكتاب قبلهم فجاء ذلك تشجيعاً لهم على صيام هذا الشهر خاصة ، وأن المسلمين كانوا يتنافسون في العبادات لنيل رضى الله ، وليتخذوا من الصالحين من أهل الكتاب أسوة .

١. آية ١٧١ من سورة البقرة

٢. الخفاجي ، ابن سنان : سر الفصاحة ، حققه عبد الرازق أبو زيد زايد ، مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٧٦ ، ص ٩٣ .

٣. آية ١٨٣ من سورة البقرة

وتكتمل هذه الثنائية في تشبيهه آخر في قوله تعالى: ﴿أَجَلٌ لَّكُمْ لَيْلَةُ الصَّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِيَّاسٌ لَّكُمْ وَأَنْتُمْ لِيَّاسٌ لَّهُنَّ﴾^(١) . وقد بدأ التشبيه هنا بخطاب المؤمنين بخير واسطة ، ليفوزوا بشرف المخاطبة ، على خلاف ما نلاحظ في التشبيهات التي تصور الكفار . فالخطاب هنا مختلف ، لأن السياق يقتضي هذا النوع من الخطاب الذي يمتاز باللين والهدوء لهؤلاء القوم الذين آمنوا ، وأدوا الفرائض طاعة وتقرباً .

ومن أدب الخطاب في هذا التشبيه التعبير عن الجماع بالرفث ؛ "فحذف الفاعل عند ذكر الرفث وهو الجماع ، وصرح به عند إحلال العقد"^(٢) . فقد تناول القرآن هذا الموضوع تناولاً مميزاً ، إذ أنه " لا يمر على هذا المعنى دون لمسة حانية رفاقة ، تمنح العلاقة الزوجية شفافية ورفقاً ونداوة ، وتتأى بها عن غلظ المعنى الحيواني وعرامته ، وتوقظ معنى السر في تيسير هذه العلاقة"^(٣) . وهنا تبرز الثنائية واضحة ، حيث نلمس الفرق في الخطاب القرآني للكافرين والمؤمنين، واختلاف ألوان التصوير، فهو في الأولى خطاب زجر وترهيب وتقريع، وفي الثانية توضيح وتفسير .

وفي سياق آخر يوجه فيه الخطاب للمؤمنين الذين يؤدون الفرائض باللطف واللين في قوله سبحانه: ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ﴾^(٤) . والتشبيه هنا بذكر الآباء لكثرتهم وقربه من الإنسان . وكذلك يجب أن يكون ذكر الخالق كذكر الآباء في التكرير والكثرة .

ثم تتوالى التشبيهات لتكتمل صورة المؤمنين، وتزداد الثنائية وضوحاً في قوله تعالى: ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَنْى شِئْتُمْ﴾^(٥) . والتشبيه هنا بليغ ، فلم يقل : نساؤكم

١ . بعض الآية ١٨٧ من سورة البقرة .

٢ . الزركشي ، بدر الدين : البرهان في علوم القرآن، ج ٤ ، ص ٦١ .

٣ . قطب ، سيد : في ظلال القرآن، ج ٢، ص ٢٤٩ .

٤ . بعض الآية ٢٠٠ من سورة البقرة .

٥ . بعض الآية ٢٢٣ من سورة البقرة .

كالحرث ، لتقريب هذه الصورة وتأكيدهما في الأذهان ، واستخدام الحرث في هذه الصورة له دلالاته ، فالمناسبة مناسبة إخصاب وتوالد ونماء . " وما دام حرثاً فأتوه بالطريقة التي تشاءون . ولكن في موضع الإخصاب الذي يحقق غاية الحرث " (١) . وقد جاء الخطاب للمؤمنين بغير واسطة تشریفاً لهم ، ورفعاً لمكانتهم .

وفي تشبيه آخر يكون الخطاب للمؤمنين في قوله تعالى : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مائة حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (٢) . من خلال هذه الصورة يتم تقديم المغريات للإنسان المسلم لينفق في سبيله عن طيب خاطر ، فهو في عرضه لهذا التشبيه يعالج نفسية المسلم ، وذلك بمعرفته حرص الإنسان على المال وحب اكتنازه ، من هنا جاء الخطاب مشوقاً من خلال صورة المشبه به لبيان أهمية النفقة في سبيله عز وجل .

والخطاب هنا يختلف عنه في الآيات السابقة ، فهو خطاب يبدأ بالحض والحث على الإنفاق لا بالتكليف والفرض ، لذلك جاء الخطاب هادئاً ليناً في هذا التشبيه الذي يعرض لنا صورة من صور الحياة المعطاءة ، ألا وهي صورة الزرع .

"إنّ المعنى الذهني للتعبير ينتهي إلى عملية حسابية تضاعف الحبة الواحدة إلى سبعمئة حبة ! أما المشهد الحي الذي يعرضه التعبير فهو أوسع من هذا وأجمل ، وأكثر استجاشة للمشاعر وتأثيراً في الضمائر .. إنه مشهد الحياة النامية . مشهد الطبيعة الحية . مشهد الزراعة الواهبة . ثم مشهد العجبية في عالم النبات : العود الذي يحمل سبع سنابل . والسنبلة التي تحوي مائة حبة ! " (٣) .

١. قطب ، سيد : في ظلال القرآن ، ج ٢ ، ص ٣٥٣

٢. آية ٢٦١ من سورة البقرة

٣. قطب ، سيد : السابق ، ج ٣ ، ص ٤٤٨

ويتبعه تشبيه آخر ليكمل لنا صورة الإنفاق في سبيله في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾^(١). وقد بدأ الخطاب بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾. وهو "خطاب تشریف لا تخصيص. وهذا يدل على انه سبحانه لما خاطب هذه الأمة بالإيمان أولاً فإنه تعالى يعطيهم الأمان من العذاب في النيران يوم القيامة"^(٢).

ونلاحظ أن الخطاب يبدأ هادئاً عند النصيحة في بداية السياق، ويزداد حدة عندما يرسم لنا صورة الذي ينفق فينبغ فينبغ نفقته المن والأذى، فهو يحذر هذه الفئة من الناس، ويتدرج في خطابه ليصل به إلى التحدي والتحذير والترهيب في قوله: ﴿لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾، ليبين لنا أن هؤلاء القوم لا يستطيعون حفظ أموالهم، فقد خسروا رضى الله وجزاءه في الدنيا والآخرة. "والغرض من هذا التشبيه تفضيع المشبه به وليس المراد المماثلة في الحكم الشرعي. جمعاً بين الأدلة الشرعية"^(٣).

وفي السياق نفسه نلاحظ استخدام أسلوب خطابي مختلف عندما يتحدث عن الذين ينفقون إيماناً وتقوى، لينالوا رضى الله في الدنيا والآخرة في قوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ﴾^(٤). والخطاب هنا يحمل بين طياته الهدوء والترغيب، فالمخاطب هنا هو المؤمن الصادق الذي ينفق عن باعث إيمان وتقوى. ونلمس الترغيب من خلال هذه الصورة التي رسمها لنا، فجاء التشبيه صورة حية، تزداد قوة

١. آية ٢٦٤ من سورة البقرة.

٢. السيوطي، جلال الدين: الاتقان في علوم القرآن، ج ٢، ص ١٨.

٣. ابن عاشور، محمد الطاهر: التحرير والتوير، ج ٢، ص ٤٨.

٤. بعض الآية ٢٦٥ من سورة البقرة.

وحيوية عندما يصيبها الوايل لتأتي بثمارها مضاعفة ، وبذلك تكون قد بلغت الصورة ذروتها ، لتعود مرة أخرى لشيء من الهدوء : ﴿ فَإِنْ لَمْ يُصِيبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ﴾ ، "قمن هذا وأمثاله نجد الترغيب في البذل مصوراً تصويراً بليغاً وقائماً على أسس نفسية تحرك عواطف الإنسان ، وتعمل في وجدانه الذي هو أقوى من عقله في الاندفاع إلى الأمر المرغوب فيه " (١) .

وإذا تأملنا التشبيهين الأخيرين نلاحظ انهما يصوران معنيين متقابلين يتعلقان ببذل الصدقة وإنفاق المال في وجوه الخير . فهو في الأول موجه للمنافقين الذين ينفقون أموالهم ليتحدث عنهم الآخرون ، فجاء المشبه به ليناسب هذا النفاق ﴿ كَمَثَلِ صَفْوَانَ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا ﴾ (٢) . في حين جاء المشبه به في المقابل لمن أنفق ابتغاء مرضاة الله : ﴿ جَنَّةٍ بَرْنُورَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ ﴾ (٣) . فالوايل مشترك في الصورتين ، ولكنه في الأولى يأتي ليكشف النفاق ، وفي الثانية يأتي ليخصب ويضاعف النفقة . فقد جاء التشبيه في السياق نفسه ، وهو الصدقة والإنفاق ، ولكن الفرق بين الصورتين واضح بين . وهذا ما يمتاز به الأسلوب القرآني الذي قابل بين الفئتين المنفقتين .

أما إذا تأملنا التشبيهات الثلاثة الأخيرة فنجد مشاهدتها تعرض صوراً متناسقة تكمل بعضها بعضاً . "فإن التناسق الدقيق الجميل المحوظ في تركيب كل مشهد على حدة ، وفي طريقة عرضه وتنسيقه .. هذا التناسق لا يقف عند المشاهد فرادى . بل إنه ليمتد رواقه فيشمل المشاهد متجمعة ... إنها جميعاً تعرض في محيط متجانس . محيط زراعي ! " (٤) .

وفي السياق التالي نرى الوجه المقابل للصدقة ، الوجه الكالح المظلم ، وهو صورة الربا في قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ

١. شرف ، حفني محمد : " الصور البيانية بين النظرية والتطبيق " ، دار نهضة مصر للطبع والنشر ١٩٦٥ ،

ص ١٨٣ - ص ١٨٤ .

٢. بعض الآية ٢٦٤ من سورة البقرة .

٣. بعض الآية ٢٦٥ من سورة البقرة .

٤. قطب ، سيد : في ظلال القرآن ، ج ٣ ، ص ٤٥٤ .

مِنَ الْمَسِّ^(١) . لقد جاء هذا التشبيه تابعاً لتشبيهات الصدقة والإنفاق ، حتى يكشف لنا النقاب عن عملية الربا . ويمتاز الخطاب في هذا التشبيه بالترهيب والتحذير من أكل الربا ، حيث تأتي الصورة مُنفردة ، ليبعد الناس عن التعامل بالربا الذي كان منتشرًا بشكل كبير .

"ومما كان أي تهديد معنوي ليلبغ إلى الحس ما تبلغه هذه الصورة المجسمة الحية المتحركة . صورة الممسوس المصروع .. وهي صورة معروفة معهودة للناس . فالنص يستحضرها لتؤدي دورها الإيحائي في إفزاع الحس ، لاستجاشة مشاعر المرابين ، وهزها هزة عنيفة " (٢) .

ويقول تعالى في السياق نفسه : "ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا"^(٣) . ويمتاز هذا التشبيه بأنه تشبيه مقلوب جاء على لسان مستحلي الربا ، " لأن الكلام في الربا لا في البيع ، فوجب أن يقال : " إنهم شبهوا الربا بالبيع فاستحلوه "^(٤) . ويحمل الخطاب في طياته الاستهزاء بأكلي الربا ، ثم يعود ليؤكد لنا أن البيع هو الأصل وهو الحلال ، وأن الربا حرام نهى عنه الإسلام بشكل قاطع كما نلاحظ التأدب في الخطاب حيث تم ذكرُ الفاعل عند البيع وعدم ذكره عند الربا .

وفي هذه التشبيهات عن النفقة والربا تتكرر الشائبة الضدية ، شائبة الإنفاق في سبيله عز وجل والخطاب فيه للمؤمنين ، والربا والخطاب فيه للكافرين .

" وفي رسم هذه الملامح نجد خصائص التعبير القرآنية ، التي تتجلى في قيام الكلمة مقام الخط واللون ، إذ سرعان ما ترتسم انصور من خلال الكلمات ، ثم سرعان ما تتبيض هذه

١. بعض الآية ٢٧٥ من سورة البقرة .

٢. قطب ، سيد : في ظلال القرآن ، ج٣ ، ص ٤٧٥ .

٣. بعض الآية ٢٧٥ من سورة البقرة .

٤. الزمخشري ، أبو القاسم جار الله محمود بن عمر : "الكشاف عن حقائق التنزيل" ، دار المعرفة ، ج ١ ، ص ٢٤٥ .

الصور وكأنها تموج بالحياة" (١) . فالخطاب في الصورة الأولى يمتاز بالترغيب والتشويق بأسلوب خطابي يمتاز باللين والهدوء ، في حين نجده في الثانية يمتاز بالترهيب والتحذير .

وعناصر هذه التشبيهات مستمدة جميعها من الطبيعة ، كما أنها تشتمل على عناصر قوية هي سبب استمرارها وبقائها ، ويعود السبب في ذلك إلى أن هذه التشبيهات جاءت لتوضح فكرة ما ، مصورة بأسلوب خطابي بلاغي مؤثر يجعل الفكرة في صورة ماثلة أمام القارئ ، ومؤثرة لأن الغرض ليس مجرد توضيح ، وإنما تغيير سلوك ، وتحديد أسس المعاملات .

" ومن خصائص التشبيه القرآني ، أنه ليس عنصراً إضافياً في الجملة ، ولكنه جزء أساسي لا يتم المعنى بدونه ، وإذا سقط من الجملة انهار المعنى من أساسه ، فعمله في الجملة انه يعطي الفكرة في صورة واضحة مؤثرة ؛ فهو لا يمضي إلى التشبيه كأنما هو عمل مقصود لذاته ، ولكن التشبيه يأتي ضرورة في الجملة، يتطلبه المعنى ليصبح واضحاً قوياً" (٢) .

وأغلب هذه التشبيهات كانت تمثيلية ، والتمثيل " ضرب خاص من ضروب الأساليب البلاغية في التعبير غير المباشر ، وهو وإن كان قائماً على التشبيه ، غير أنه أخص منه " (٣) ، ويعود السبب في ذلك إلى أن التشبيه التمثيلي أشد تأثيراً في النفس ، فهو يعرض الصورة حيّة متحركة ، إذ "يفخّم المعنى بالتمثيل وينبل ويشرف ويكمل . فأول ذلك وأظهره أن أنس النفوس موقوف على أن تخرجها من خفي إلى جلي ، وتأتيها بصريح بعد مكنى ، وأن تردّها في الشيء تعلّمها إياه إلى شيء آخر هي بشأنه أعلم ، وثقتها به في المعرفة أحكم ، نحو أن تتقلها عن العقل إلى الإحساس وعمّا يُعلم بالفكر إلى ما يعلم بالاضطرار والطبع" (٤) .

١. قطب ، سيد : في ظلال القرآن ، ج ١ ، ص ٣٧ .

٢. بدوي ، أحمد أحمد : من بلاغة القرآن ، مكتبة نهضة مصر ، ط ٣ ، ص ١٩٨ .

٣. ناجي ، مجيد عبد الحميد : الأسس النفسية لأساليب البلاغة العربية ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ١٩٨٤م ، ط ١ ، ص ٢٠١ .

٤. الجرجاني ، عبد القاهر : أسرار البلاغة ، تحقيق هـ. ريتز ، ط ٣ ، ص ١٠٨ .

هذا فضلاً عن اختلاف الخطاب القرآني من حيث اللين والهدوء ، أو التحذير والترهيب والشدة ، وذلك ليلائم المخاطب من جهة ، والغرض الذي جاء من أجله التشبيه من جهة أخرى. إذ " يمكن للباحث أن يلتمس بعض الجوانب النفسية للصور التشبيهية من حيث علاقتها بالمتلقي ومدى تأثيرها فيه ، وتفاعله معها " (١) .

وقد " كان للمناققين والكافرين والمشركين نصيب وافر من التشبيه ، الذي يزيد نفسيتهم وضوحاً ، ويصور وقع الدعوة على قلوبهم ، وما كانوا يقابلون به تلك الدعوة من النفور والإعراض " (٢) . وقد امتاز الخطاب لهذه الفئة بالشدة ، وكان خطاب ترهيب وتحذير ، على خلاف الخطاب للمؤمنين الذي امتاز بالهدوء والترغيب والإقناع .

أما إذا تأملنا العلاقة بين المشبة والمشبه به فهي إما تشبيه محسوس بمحسوس ، كتشبيه النفقة بالسنبلة ، أو الأرض بالفراش ، أو تشبيه معقول بمحسوس ، كتشبيه أعمال المنافقين بمستوقد النار ، أو قلوب بني إسرائيل بالحجارة . فأغلب هذه التشبيهات جاءت بمشبه به محسوس ، والهدف من ذلك تقريبها من ذهن السامع ، وتوضيحها له . كما نجد أن هذه العلاقة بين المشبه والمشبه به ملائمة ؛ فإذا كان المشبه عظيمًا كالصدقة -مثلاً- جاء المشبه به كذلك ، وإذا كان المشبه ضيعاً كالربا جاء المشبه به كذلك أيضاً . وإذا تأملنا هذه التشبيهات وجدنا أن التشبيهات الخاصة بالمؤمنين يكون المشبه بها عظيمًا ، وكذلك المشبه به ، على خلاف التشبيهات الخاصة بالكافرين .

وتدور موضوعات التشبيه في سورة البقرة في الغالب حول موضوعين اثنين : الكفار وبني إسرائيل من جهة ، والمؤمنين من الجهة الأخرى . ومن خلال هذين الموضوعين نستشف الثنائية التي رسمتها صور التشبيه التمثيلي .

١. ناجي ، مجيد عبد الحميد : الأسس النفسية لأساليب البلاغة العربية ، ص ١٩٢ .

٢. بدوي ، أحمد أحمد : من بلاغة القرآن ، ص ٢٠٤ .

ب - المستوى الثاني : "الاستعارة"

الاستعارة فن من الفنون البلاغية التي شاع ذكرها واستخدامها في القرآن الكريم ، ففيها يتم " نقل المعنى من لفظ إلى لفظ ، لمشاركة بينهما ، مع طي ذكر المنقول إليه " (١) . وعند الزركشي " أن تستعار الكلمة من شيء معروف بها إلى شيء لم يعرف بها " (٢) ، ويرى الجرجاني " أنها تبرز البيان أبداً في صورة مستجدة تزيد قدره نبلا ، وتوجب له بعد الفضل فضلا " (٣) .

وأول ما يلقانا من استعارات سورة البقرة قوله تعالى : ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ (٤) ، والخطاب في هذا السياق للمؤمنين فهو خطاب هادئ ، ليناسب الغرض ، إذ يبين لنا طاعة المؤمنين وتقربهم منه سبحانه ، وقد استعيرت الإقامة للصلاة (٥) بياناً لتمام أدائها .

" وقد عبر هنا بالمضارع كما وقع في قوله : ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ ليصلح ذلك للذين أقاموا الصلاة فيما مضى وهم الذين آمنوا من قبل نزول الآية ، والذين هم بصدد إقامة الصلاة ، وهم الذين يؤمنون عند نزول الآية ، والذين يستهدون إلى ذلك وهم الذين جاءوا من بعدهم إذ المضارع صالح لذلك كله " (٦) .

فكلمة يقيمون شملت المؤمنين جميعاً في الماضي والحاضر والمستقبل . واستخدام هذه اللفظة على سبيل الاستعارة " تشبيهاً له بالقائم ثم استعير الإقامة من تسوية الأجسام التي

١. ابن الأثير ، ضياء الدين : المثل السائد ، تحقيق أحمد الحوفي وبدوي طبانة ، مكتبة نهضة مصر ، ط ١ ، ١٩٦٠م ، ج ٢ ، ص ٨٣ .

٢. الزركشي ، بدر الدين : البرهان في علوم القرآن ، ج ٣ ، ص ٤٣٣ .

٣. الجرجاني ، عبد القاهر : أسرار البلاغة ، ص ٣٢-٣٣ .

٤. بعض الآية ٣ من سورة البقرة .

٥. انظر الزمخشري ، أبو القاسم : الكشاف عن حقائق التنزيل ، ج ١ ، ص ١٢٩ .

والألوسي ، أبو الفضل : روح المعاني ، ج ١ ، ص ١١٥ .

٦. ابن عاشور ، محمد الطاهر : التحرير والتنوير ، ج ١ ، ص ٢٣١ .

صارت حقيقة فيها لتسوية المعاني كتعديل أركان الصلاة على ما هو حقها ^(١) .

وفي سياق آخر تأتي الاستعارة لتصف المؤمنين في قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ ^(٢) . ومن خلال هذه الاستعارة نرى المؤمنين بهدائيتهم وتمكنهم من الإيمان كمن استعلى الشيء ، ومن هنا نستشف رضى الله سبحانه عن هؤلاء القوم من خلال الخطاب الهاديء اللين الذي يغلفه الترغيب ، دعوة للناس إلى الإيمان .

ثم تأتي الاستعارة في السياق التالي لترسم لنا صورة الوجه المقابل في قوله تعالى: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ ^(٣) . لقد رسمت لنا هذه الاستعارة: "صورة صلدة ، مظلمة ، جامدة ، ترتسم من خلال الحركة الثابتة الجازمة . حركة الختم على القلوب والأسماع ، والتغشية على العيون والأبصار" ^(٤) ، واستخدام كلمة الختم ثم التغشية له دلالاته البلاغية ، وذلك لملاءمة هاتين الكلمتين لهذا الخطاب الجازم الحاد، لأنه موجه إلى قوم سلموا أنفسهم للكفر والطغيان ، فهذا الجمود شمل القلوب بختمها، ولم يكتف بذلك ، وإنما امتد ليشمل العيون والأذان التي لا تختم وإنما تغشى . من هنا ندرك مدى البلاغة في استخدام الألفاظ ، فهم بعد أن ختمت قلوبهم ، وغشيت عيونهم وآذانهم ، لا يختلفون عن البهائم شيئاً ، فهم لا يفقهون ولا يسمعون ولا يبصرون . ثم تنتهي الاستعارة بتهديد ووعيد شديد اللهجة في قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ .

وتتوالى الاستعارات لتعبر لنا عن هذه الفئة من الناس في قوله تعالى:
﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ ^(٥) استخدم لفظي البيع والشراء ، وهما لفظتان حسيتان ؛ ليقرب هذه الاستعارة من الأذهان ، فالتجارة كانت من الأعمال الممارسة عند الناس منذ الجاهلية . " ومعنى اشتراء الضلالة بالهدى :

١. الألويسي ، أبو الفضل : روح المعاني ، ج١ ، ص ١١٥ .

٢. آية ٥ من سورة البقرة .

٣. آية ٧ من سورة البقرة .

٤. قطب ، سيد : في ظلال القرآن ، ج١ ، ص ٤٤

٥. آية ١٦ من سورة البقرة

اختيارها عليه واستبدالها به على سبيل الاستعارة" (١) . وينطوي الخطاب على التهديد والوعيد لهؤلاء الكفار ، كما أنّ استخدام اسم الإشارة "أولئك" له دلالاته ، فهؤلاء بعيدون عن الهدى وطريق الحق ، ولفظة "أولئك" جاءت لتدل وتؤكد هذا البعد .

وهذه استعارة أخرى يكون الخطاب فيها للمنافقين والكافرين في قوله تعالى : ﴿الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾ (٢) ، ويتسم الخطاب بأنه خطاب تهديد ووعيد لمن ينقضون العهد ، وقد أتى بصورة حسية حتى تكون قريبة من الأذهان ، وذلك على سبيل الاستعارة ، كفن من فنون القرآن البلاغية . ويرى الزمخشري انه ساغ استعمال النقض في إبطال العهد " من حيث تسميتهم العهد بالحبل ... لما فيه من ثبات الوصلة بين المتعاهدين" (٣) .

وفي سياق آخر تقدم الاستعارة صورة أخرى من صور قدرة الله سبحانه في قوله تعالى : ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (٤) . نلاحظ هدوء الخطاب فهو يدعو الناس إلى التدبر والتفكر وهذا الغرض يناسبه الهدوء الذي يغلف هذه الاستعارة . فقد عبّر عن خلق السماوات بالاستواء "أي قصد إليها بإرادته ومشينته بعد خلق ما في الأرض من غير أن يريد فيما بين ذلك خلق شيء آخر" (٥) .

وفي السياق التالي يختلف أسلوب الخطاب باختلاف المخاطب والغرض في قوله تعالى : ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُون﴾ (٦) .

لقد سبق التعبير بالشراء عن اتباع الإسلام، والتقيّد بما دعا إليه سبحانه، ويمتاز الخطاب هنا أيضاً بالهدوء، وذلك لأنه موجه إلى الناس عامة، لينصحهم ويدعوهم إلى تقوى

١. الزمخشري ، أبو القاسم : الكشاف عن حقائق التنزيل ، ج ١ ، ص ١٩٠ .

٢. بعض الآية ٢٧ من سورة البقرة .

٣. الزمخشري ، أبو القاسم : السابق ، ج ١ ، ص ٢٦٨ .

٤. بعض الآية ٢٩ من سورة البقرة .

٥. الزمخشري ، أبو القاسم : السابق ، ج ١ ، ص ٢٧٠ .

٦. بعض الآية ٤١ من سورة البقرة .

الله . ولا يمكن أن تكون النصيحة إلا بخطاب يمتاز باللين والرفق ؛ ليتفكروا ويتدبروا .

ويختلف الأسلوب الخطابي مرة أخرى في صدد تذكير بني إسرائيل بنجاتهم من عذاب فرعون ، إذ يحمل الخطاب التذكرة والعظة في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾^(١) . فقد عبّر عن الزامهم العذاب بالسوم في البيع . ويبدأ الخطاب حاداً شديد اللهجة ثم يتدرج في حديثه لبيان سوء العذاب عن طريق ذبح الأبناء . فالمقام هنا مقام تذكير لبني إسرائيل ليعتبروا ويتعظوا .

ويعود الأسلوب الخطابي بنا من خلال الاستعارة إلى شيء من الشدة في الحديث عن الكفار في قوله تعالى : ﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ﴾^(٢) . فقد "جعلت الذلة محيطية بهم مشتملة عليهم ؛ فهم فيها كما يكون في القبة من ضربت عليه"^(٣) ، واستخدام عبارة "ضربت عليهم" تدل على تمكن واشتمال الذلة عليهم فهي محيطية بهم ، ويتدرج الخطاب في حديثه ليصل إلى قوله : ﴿ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ﴾ حيث يبلغ ذروة الوعيد والتهديد الشديدين .

وإذا تأملنا الاستعارة في قوله تعالى : ﴿ بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾^(٤) . والخطاب هنا موجه للكفار ، واستخدام لفظة "أحاطت" لها مدلولها البلاغي ، إذ إن الإحاطة تكون للأغلب ، فالسينات غالبية على الحسنات ، لذلك

١. آية ٤٩ من سورة البقرة

٢. بعض الآية ٦١ من سورة البقرة.

٣. القزويني، الخطيب: الإيضاح في علوم البلاغة، تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي، دار الكتاب اللبناني، ط٤ ١٩٧٥ ، ج١، ص ٤٢٨-٤٢٩ .

وانظر الزمخشري ، أبو القاسم : الكشاف عن حقائق التنزيل ، ج١، ص ٢٨٥

٤. آية ٨١ من سورة البقرة .

نراها محيطة بصاحبها من جميع جهاته ، " لأن الشيء لا يحيط بالشيء من جميع جهاته إلا بعد أن يكون سابغاً غير قالص ، وزائداً غير ناقص" (١) . والاحاطة تجعل المرء يتصور حالة هذا الكافر ، وكثرة خطاياها . فلو كان التعبير بقوله " غلبت" لما أدت هذا المعنى وهذه الصورة .

وفي سياق آخر تلعب الاستعارة دورها في التعبير عن المعنى المقصود في قوله تعالى : ﴿ وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ﴾ (٢) . هذه الاستعارة رسمت لنا صورة غليظة تعبر عن حبهم لهذا العجل " ... حتى لكانهم أشربوه إشراباً في القلوب ! هنا تبدو قيمة التعبير القرآني المصور ، بالقياس إلى التعبير الذهني المفسر .. إنه التصوير .. السمة البارزة في التعبير القرآني الجميل" (٣) . ولا يخفى على أحد هذا الوعيد الذي امتاز به السياق لهؤلاء الكفار على ما قاموا به .

ويمتاز الخطاب تارة أخرى بالاستهزاء بالكفار في قوله تعالى : ﴿ قُلْ بِسْمِ اللَّهِ يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيْمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ (٤) . والمخاطب هنا هم المنافقون الذين يدعون الإيمان ويمارسون الكفر والطغيان ، وهذه استعارة " لأن الإيمان على الحقيقة لا يصح عليه النطق ، فالأمر إنما يكون بالقول" (٥) .

وقد مثلت استعارة أخرى أعمال الكفار وتصوراتهم في قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ

١. الرضي ، الشريف : تلخيص البيان في مجازات القرآن ، حققه محمد عبد الغني حسن ، دار مكتبة

الحياة ، ط ١ ١٩٩٥ م ، ص ١١٦ .

٢. بعض الآية ٩٣ من سورة البقرة .

٣. قطب ، سيد : في ظلال القرآن ، ج ١ ، ص ١٢١ .

٤. بعض الآية ٩٣ من سورة البقرة .

٥. الرضي ، الشريف : السابق ، ص ١١٧ .

ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ^(١) . ونبذ الشيء وراء الظهر دليل على عدم الاهتمام به ، ويمكننا القول إن " التعبير المصور ينقل المعنى من دائرة الذهن إلى دائرة الحس ، ويمثل عملهم بحركة مادية متخيلة ، تصور هذا التصرف تصويراً بشعاً زرياً ، ينضح بالكنود والجحود ، ويتسم بالغلظة والحماسة ، ويفيض بسوء الأدب والقحة ، ويدع الخيال يتملى هذه الحركة العنيفة ، حركة الأيدي تنبذ ختابك وراء الظهر " ^(٢) .

وفي الاستعارة التالية يقول سبحانه وتعالى : ﴿ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ ^(٣) . والخطاب هنا موجه للكفار ، وهو خطاب تهديد وتحذير لبيان مدى كفرهم وجحودهم ، وحتى يرتدع الناس عن القيام بأعمال هؤلاء القوم . وعبر عن تمسكهم بأعمال الشر والطغيان بقوله : ﴿ شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ ﴾ " وهذه استعارة لأن بيع نفوسهم على الحقيقة لا يتأتى لهم ، والمراد به - والله أعلم - أنهم لما أوبقوا أنفسهم بتعلم السحر ، واستحقوا العقاب على ما في ذلك من عظيم الوزر ، كانوا كأنهم رضوا بالسحر ثمناً لنفوسهم ، إذ عرضوها بعمله للهلاك " ^(٤) .

وفي السياق التالي يختلف الخطاب ، إذ يمتاز بالهدوء المقرون بالموعظة والتذكرة ، فهو خطاب للوجه المقابل للكافرين والمنافقين في قوله تعالى : ﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يُعْقُوبَ الْمَوْتُ ﴾ ^(٥) . فقد عبر عن الموت بقوله : " حَضَرَ الْمَوْتُ " ، ونلاحظ أن الاستعارة هنا تدعو المؤمنين إلى خشية الله ، والاعتراف بقدرته .

١. آية ١٠١ من سورة البقرة .

٢. قطب ، سيد : في ظلال القرآن ، ج ١ ، ص ١٢٦ .

٣. بعض الآية ١٠٢ من سورة البقرة .

٤. الرضي ، الشريف : تلخيص البيان في مجازات القرآن ، ص ١١٧ .

٥. بعض الآية ١٣٣ من سورة البقرة .

وفي سياق آخر تأتي الاستعارة مخاطبة اليهود والنصارى في قوله تعالى: ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴾^(١) . وقد جاءت هذه الاستعارة على لسان المؤمنين ، ويتسم الخطاب فيها بالهدوء والخشوع والإجلال . وذلك واضح في قوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴾ . وقد عبّر عن "دين الله" بـ "صبغة الله" وجعله بمنزلة الصبغ لأن أثره ظاهر ووسمه لائح" ^(٢) .

وتأتي الاستعارة في موضع آخر لمخاطبة المرتدين عن الإسلام في قوله تعالى : ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَيَّ عَقْبَيْهِ﴾^(٣) . وتتسم هذه الاستعارة بالزجر والتهديد والوعيد لهم على صنيعهم هذا . فمصيرهم واضح بعد ارتدادهم . وقد جاءت الاستعارة لتصور لنا الموقف صورة حسية واضحة يقربها من الأذهان . وهنا نلمس جمال الاستعارة وبلاغتها من لو كان التعبير بلغة عربية معجمية كقوله (يرتد عن دينه) . والفرق بينهما واضح بين .

وتلعب الاستعارة دورها في سياق آخر لبيان قدرته سبحانه في قوله تعالى : ﴿فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾^(٤) . إذ عبّر عن نبات الزرع في الأرض بالحياة . وقد امتازت الاستعارة هنا بالهدوء لما فيها من التدبر والتفكر في قدرته سبحانه وتعالى . واستخدام لفظة "فأحيا" تصور لنا هذه الأرض صورة حية مليئة بالحركة والألوان ، فهي عبارة عن لوحة فنية حية متحركة .

ونعود مرة أخرى إلى الوجه المقابل ، الوجه الكالح في قوله تعالى: ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾^(٥) . وتمتاز الاستعارة هنا بالوعيد والزجر على خلاف الاستعارة السابقة ،

١ . الآية ١٣٨ من سورة البقرة .

٢ . الرضي ، الشريف : تلخيص البيان في مجازات القرآن ، ص ١١٨ .

٣ . بعض الآية ١٤٣ من سورة البقرة .

٤ . بعض الآية ١٦٤ من سورة البقرة .

٥ . بعض الآية ١٦٦ من سورة البقرة .

فالمخاطب هنا هم الكفار ، وجاءت الاستعارة بصورة حسية لتقربها من الأذهان ، وتتفر الناس من الكفار من خلال تصوير مصيرهم بهذه الصورة المشوهة له .

وتتوالى الاستعارات لتكمل هذه الثانية ، ثانية خطاب المؤمن والكافر بقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾^(١) . والخطاب هنا موجه للمؤمنين ينهاهم فيه سبحانه عن اتباع الشيطان ، أي اقتراف ما نهى عنه سبحانه من محرمات ، وهذه من شرائف الاستعارة فهي أبلغ عبارة عن التحذير من طاعة الشيطان فيما يأمر به ، وقبول قوله فيما يدعو إلى فعله^(٢) .

ويستمر السياق ليكمل صورة الكفار من خلال الاستعارة في قوله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ ﴾^(٣) . فقد عبّر عن تخليهم عن الهدى والمغفرة مقابل الضلال والعذاب "بالاشتراء" ، وذلك بسلوكهم طريق الظلام والعذاب ، وهذه الاستعارة تكمل لنا صورة الكفار ، وتبين لنا صفاتهم لتكتمل الصورة في أذهاننا .

وفي سياق آخر يقول سبحانه وتعالى : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ ﴾^(٤) . وقد سبق استخدام هذه الاستعارة في قوله تعالى : ﴿ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ ﴾^(٥) ، والخطاب هنا موجه للمؤمنين ، مبيناً لهم كيفية الوصية ، لذلك جاء الخطاب ليناً هادئاً .

وتتسم الاستعارة في السياق التالي بالهدوء أيضاً في قوله تعالى : ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ﴾^(٦) . فالخطاب هنا جاء

١ . بعض الآية ١٦٨ من سورة البقرة .

٢ . الرضي ، الشريف : تلخيص البيان في مجازات القرآن، ص ١١٨-١١٩ .

٣ . آية ١٧٥ من سورة البقرة .

٤ . بعض الآية ١٨٠ من سورة البقرة .

٥ . بعض الآية ١٣٣ من سورة البقرة . ص ٩٦ .

٦ . بعض الآية ١٨٧ من سورة البقرة .

ليحدد للمؤمنين موعد صيامهم . والمراد بهذه الاستعارة : " حتى يتبين بياض الصبح من سواد الليل " (١) .

فعبّر عن ذلك بالخيط الأبيض والخيط الأسود . ويرى الزمخشري أنها ليست استعارة إذ يقول : " قوله من الفجر أخرجه من باب الاستعارة " (٢) . وبما أنه يوجد تشبيه حذف أحد طرفيه فهي استعارة ، وقوله من الفجر قرينه لهذه الاستعارة .

وتتوالى الاستعارات التي تكمل صورة المؤمنين في قوله تعالى : ﴿ وَتَزَوَّدُوا فَإِنْ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ (٣) . والغرض من الخطاب هنا هو نصح المؤمنين بالإكثار من التقوى ، والالتزام بما دعا إليه الله سبحانه ، معبراً عن ذلك بقوله : ﴿ تَزَوَّدُوا ﴾ . فقد قربها لنا بتصويرها تصويراً حسياً ، كما نلاحظ اختلاف المستوى الخطابي الموجه للمؤمنين - لا سيما - في نهاية هذه الاستعارة في قوله تعالى : ﴿ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ . وهذا تشريف للمؤمنين . ومن هنا نلاحظ الفرق بين خطاب المؤمنين وخطاب الكافرين . فهو يصف المؤمنين بأصحاب العقول المفكرة المدبرة .

وتأتي الاستعارة مرة أخرى لتنصح المؤمنين وترشدهم الى ما فيه خيرهم وصلاحهم في قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً ﴾ (٤) . وقد بدأ بقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ وهو خطاب تشريف وتكريم للمؤمنين ، ورفع لمكانتهم ، إذ عبر عن اتباع الدين الإسلامي والالتزام به بقوله : ﴿ ادْخُلُوا ﴾ .

١. الرضي ، الشريف : تلخيص البيان في مجازات القرآن ، ص ١٢٠ .

٢. الزمخشري، أبو القاسم: الكشاف عن حقائق التنزيل، ج ١، ص ٣٣٩ .

٣. بعض الآية ١٩٧ من سورة البقرة

٤. بعض الآية ٢٠٨ من سورة البقرة

٥. بعض الآية ٢٠٨ من سورة البقرة

ويعود بنا السياق مرة أخرى إلى الخطاب الشديد الحاد في قوله تعالى : ﴿ وَكَمَا يَأْتِكُم مِّثْلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرَ اللَّهُ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾^(١) . والخطاب هنا خطاب تهديد ووعيد . وقد عبر عن قرب البأساء والضراء منهم بالمساس ، وهو ما يلمس الشيء ويحتك به ، وهذا يدل على شدة قربها منهم . وفي قوله تعالى ﴿ وَزُلْزِلُوا ﴾ للتعبير عن مدى الإزعاج والشدة التي نالتهم . فما أصابهم لم يكن هيناً ، وإنما كان شديداً قاسياً ، فعبر عنه بالزلزلة لما فيها من هز الكيان هزاً عنيفاً ، وهذا التعبير ينقلنا أمام صورة مفزعة عنيفة مليئة بالحركة ، ثم ينحدر الخطاب من هذه الشدة مرة أخرى إلى البدء في قوله تعالى : ﴿ حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ ﴾ باختلاف المناطبات أدى إلى اختلاف المستوى الخطابي . وهذا من أساليب اعجاز القرآن الكريم .

وينتقل بنا السياق مرة أخرى إلى خطاب المؤمنين في قوله تعالى : ﴿ الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ ﴾^(٢) . ومن خلال هذه الاستعارة نستشف هدوء الخطاب ، فالخبر من نصيحة المؤمنين ، ودعوتهم إلى التقيد بما أمر الله ، والالتزام به . فالسياق يتحدث عن أمر من أمور حياة المسلمين وهو الطلاق . وقد عبر عن ذلك بأسلوب بلاغي وهو الاستعارة ، واختار لفظة ﴿ إِمْسَاكٌ ﴾ للدلالة على أهمية ذلك وضرورة الالتزام به . ولو قال " التزموا " لما أدت هذه اللفظة نفس مدلول لفظة ﴿ إِمْسَاكٌ ﴾ ، لما توحى هذه اللفظة من التشبث بالشيء والمحافظة عليه .

وفي السياق التالي يقول سبحانه وتعالى : ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَالَا تَعْتَدُوهَا ﴾^(٣) .

١ . بعض الآية ٢١٤ من سورة البقرة

٢ . بعض الآية ٢٢٩ من سورة البقرة

٣ . بعض الآية ٢٢٩ من سورة البقرة

والخطاب هنا موجه للمؤمنين أيضاً ، ولكنه مغلف بشيء من التهديد والوعيد ؛ لينهاهم عن تعدي " حدود الله " ألا وهي أوامره ونواهيه الشرعية ، ولو قال تلك أوامر ونواهي الله لكان التعبير أضعف ؛ لأن قوله تعالى : ﴿ حُدُودَ اللَّهِ ﴾ كأنها فواصل وحواجز بين الدول لا يمكن اجتيازها أو تعديها ، ومن يتعداها يعاقب يعاقب عقاباً شديداً ، وكذلك الحال مع اجتياز أو تعدي أوامر الله أو نواهيه .

ويلجأ الخطاب مرة أخرى إلى التعبير نفسه في سياق آخر في قوله تعالى : ﴿ إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ ﴾^(١) والخطاب هنا للمؤمنين يأمرهم فيه المحافظة على أوامر وأحكام الله ، وقد عبر عن ذلك بالإقامة ، لبيان مدى أهمية المحافظة عليها والالتزام بها .

وفي السياق التالي تقوم الاستعارة بدورها في ترغيب المؤمنين على البذل في سبيله سبحانه وذلك في قوله تعالى : ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ﴾^(٢) . والهدف من الخطاب هنا هو دعوة المؤمنين للإنفاق في سبيل الله . وقد عبر عن الإنفاق بالقرض ، لما توحى هذه اللفظة من استعادة المبدول مرة أخرى ، فالمؤمن الذي يبذل في سبيل الله ، يعود له ذلك رصيذاً من الحسنات في الآخرة ، فضلاً عن جزائه في الحياة الدنيا . وهذا الأسلوب الترغيبي يتلاءم وطبيعة الإنسان ، وحبه للمال واكتنازه .

وتأتي الاستعارة التالية على لسان المؤمنين في قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾^(٣) . وأول ما نلاحظه على هذا الخطاب الخشوع والانصياع لله سبحانه وتعالى في هذا الدعاء ، وقد عبر عن الصبر بالإفراغ ، وذلك لبيان حاجتهم الماسة الى الصبر الكثير على ما كانوا يلاقونه .

وهذه استعارة أخرى في قوله تعالى : ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ

١ . بعض الآية ٢٣٠ من سورة البقرة

٢ . بعض الآية ٢٤٥ من سورة البقرة

٣ . بعض الآية ٢٥٠ من سورة البقرة

الْغِيَّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنُ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾^(١) والخطاب هنا للمؤمنين ، وفيه دعوة لهم بالتمسك والالتزام بالإيمان ، وقد عبر عن الاستقامة واتباع الأحكام ، والالتزام بها بالتمسك بحبلٍ ينجيه من براثن الشيطان ، ومسالك الكفر والضلال ، فقد رسمت لنا هذه الاستعارة صورة حسية ، صورة من يمسك بحبل يشده لينجو من الكفر والضلال . لأن الكفر والضلال غرق في المعاصي .

وفي سياق آخر يقول سبحانه وتعالى : ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣﴾^(٣) . وهذا الخطاب موجه للمؤمنين الذين هم قدوة للناس ، ترغيباً لهم في دخول الإيمان . وقد عبّر عن الإيمان بالنور ، وعن الكفر بالظلمات ، أمثال هذا كثير في القرآن . على سبيل الاستعارة .

وآخر الاستعارات في سورة البقرة تأتي في قوله تعالى : ﴿وَإِنظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوها لِحْمًا ﴿٢﴾^(٢) . وقد جاءت هذه الاستعارة رداً على تقولات الكفار ، الذين أنكروا إعادة الخلق مرة أخرى ، ونلاحظ التحدي بالتأكيد على إعادة الخلق ، وهذه الاستعارة ترسم لنا صورة حية بعناصرها المحسوسة ، إذ عبّر عن استكمال خلق العظام بالكسوة .

وأغلب هذه الاستعارات كانت من نصيب الكفار والمنافقين ، معبرة عن صفاتهم وأعمالهم بألفاظ بلاغية لها دلالتها التي تبين لنا مدى جحودهم وطغيانهم . وقد اتسم الخطاب في هذه الاستعارات جميعها بالشدّة والتفريع والتهديد ، تحذيراً لهم من جهة ، وتنفيراً منهم من الجهة الأخرى ، في حين نلاحظ أن الاستعارات التي وصفت المؤمنين اتسمت باللين والهدوء.

١. آية ٢٥٦ من سورة البقرة

٢. آية ٢٥٧ من سورة البقرة

٣. بعض الآية ٢٥٩ من سورة البقرة

أما الموضوعات التي تناولتها هذه الاستعارات فقد تمحورت حول موضوعين أساسيين : الأول وصف أعمال الكفار وصفاتهم ، وبيان مصيرهم بأسلوب خطابي حاد شديد اللهجة ، والثاني يدور حول بيان بعض العبادات وكيفية أدائها من جهة ، ونصح المؤمنين وإرشادهم إلى طريق الهدى من جهة أخرى ، هذا فضلاً عن تحذيرهم في السير في طريق الضلال والطغيان . وجاء هذا كله بأسلوب خطابي هادئ لين يناسب الغرض الذي تحدثت عنه الاستعارة .

وقد عبّرت الألفاظ المستعارة عن المعاني المطلوبة تعبيراً بلاغياً ، كما جاءت الألفاظ المستعارة ملائمة للموضوع الذي استعيرت من أجله ، كاستعارة الختم والتغشية للضلال والجحود ، واستعارة الخيط الأبيض لضوء الفجر . ولو أمعنا النظر في هذه الاستعارات .

أما عن استخدام أسلوب الاستعارة ، فهو من الأساليب البلاغية التي تجعل لنا الأمر المعنوي ملموساً محسوساً ، وتقربه من أذهاننا ، فضلاً عن أن هذه الاستعارات جميعها أضفت على السياقات رونقاً مميزاً أكد على بلاغة القرآن الكريم .

ج- المستوى الثالث : " المجاز "

تعددت تعريفات المجاز عند البلاغيين العرب ، وتشابهت ، فهو عند القزويني " مَفْعَل من جاز المكان يجوزُه ، إذا تعداه ، أي : تعدت موضعها الأصلي^(١) " ، وعند الجرجاني " مَفْعَل من جاز الشيء يجوزُه إذا تعداه . وإذا عُدل باللفظ عما يوجبه أصل اللغة وُصف بأنه مجاز على معنى أنهم جازوا به موضعه الأصلي أو جاز هو مكانه الذي وُضع فيه أولاً^(٢) ، وعرفه الهاشمي بأنه : " اللفظ المستعمل في غير ما وضع له في اصطلاح التخاطب لعلاقة: مع قرينه ، مانعة من إرادة المعنى الوضعي "^(٣) .

ولم تخلُ سورة البقرة من ألوان المجاز التي خاطبت المؤمنين والمشركين ، وأول هذه المجازات يخاطب فيها الناس بعامّة ، في قوله تعالى : ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾^(٤) . وباستخدام لفظة " لا ريب " نفي للشك والريبة التي ادّعاها الكفار على القرآن الكريم . أما قوله تعالى : ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾ . فقد قصد الضالين ، وإنما سماهم متّقين ، "أي الصائرين إلى التقوى"^(٥) ، وقد عبّر عنهم بالمتّقين ، ترغيباً لهم بالإيمان ، وفي قوله : " الْمُتَّقِينَ " زيادة على المؤمنين وتقرباً إليه سبحانه . " فلو جيء بالعبارة المفصحة عن ذلك لقل هدى للصائرين إلى الهدى بعد الضلال ، فاختصر الكلام بإجرائه على الطريقة التي ذكرنا فقيل هدى للمتّقين "^(٦) .

كما أنه سبحانه " أسند الهداية للقرآن .. ، والهادي في الحقيقة هو الله رب العالمين "^(٧) ،

١. القزويني ، الخطيب : الإيضاح في علوم البلاغة ، ج٢ ، ص ٣٩٦ .
٢. الجرجاني ، عبد القاهر : أسرار البلاغة ، ص ٣٦٥ .
٣. الهاشمي ، أحمد : جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبدیع : ، ط١٢ ، ص ٢٩٠-٢٩١ .
٤. آية ٢ من سورة البقرة .
٥. الدرويش ، محيي الدين : إعراب القرآن الكريم وبيانه ، دار ابن كثير ، ط٤ ، م ١ ، ص ٢٥ .
٦. اللمخشري ، أبو القاسم : الكشف عن حقائق التنزيل ، ج ١ ص ١١٩ .
٧. الصابوني ، محمد علي : صفوة التفسير ، ج ١ ، ص ٣٢ .

وفي ذلك دعوة إلى الإقبال على القرآن الكريم وتلاوته وصولاً إلى الهداية ، ففي إسناد الهداية إلى القرآن ترغيب للناس بالتقيد بما جاء فيه ، فهو الوسيلة التي يهتدي بها الناس .

ويأتي المجاز في الخطاب التالي واصفاً لنا المنافقين ومحرراً منهم في قوله تعالى : ﴿ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَهُمْ عَدَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾^(١) ، وقد تم استخدام لفظة " المرض " استخداماً مجازياً ، صورت لنا هؤلاء القوم . وقد عبّر بها عن النفاق والخداع والشك ، فالمرض لا يقتصر على علةٍ جسمانية ، وإنما يتعداها إلى علل نفسية خصت المنافقين . واختيار لفظة " المرض " لها مدلولها البلاغي ، فقد جاءت لبيان مدى خطورة هذا النفاق على المسلمين ، وهو مرض شفاؤه التوبة ، بدليل قوله تعالى : ﴿ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا ﴾ وهنا يصل الخطاب إلى ذروته في تحذير المسلمين من هذا المرض ، وفيه أيضاً تهديد شديد للهجة للمنافقين ، وفضحاً لأمرهم .

وفي لون آخر من ألوان الخطاب البلاغي تتوعد السورة المنافقين في قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ * اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾^(٢) . يأتي الخطاب هنا ليكمل صفات المنافقين التي بدأت في السياق السابق ، ويبلغ الخطاب ذروته في تهديد المنافقين بقوله تعالى : ﴿ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ .

والسياق هنا ينقلنا أمام مشهد تمثيلي يوضح لنا من خلاله حقيقة المنافقين الذين يتركون المؤمنين ، ثم يلتقون بشياطينهم ويحاورونهم بشأن المؤمنين ، ثم يأتي الرد الجازم عليهم بقوله تعالى : ﴿ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ﴾ ، والمقصود بالاستهزاء هنا جزاء استهزائهم ، أي يعاقبهم على استهزائهم بالمؤمنين ويحقرهم ، فسمى عقوبة استهزائهم استهزاءً ، فعبر بلفظ الاستهزاء حيث كان سبباً في عقوبة الله لهم^(٣) . فالخطاب هنا خطاب تفرغ ووعيد للمنافقين ،

١. آية ١٠ من سورة البقرة .

٢. الآيتان ١٤-١٥ من سورة البقرة .

٣. حسين ، عبد القادر : القرآن والصورة البيانية ، عالم الكتب ، ط٢ ، ص ١٥٧

وقد جاء بداية على لسان المنافقين للشياطين اختيلاً واستخفافاً بالمؤمنين ، ثم نلاحظ اختلاف الأسلوب بالرد عليهم رداً يبين مصيرهم ويفتضح أمرهم.

ويستمر الخطاب في تهديد الكافرين مبيناً مصيرهم في قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾^(١) ، " أي : فما ربحوا في تجارتهم " ^(٢) ، وذلك بإسناد الربح إلى التجارة ، والمقصود بالتجارة الخاسرة هنا ترك الدين الإسلامي واتباع طريق الضلال . ويزداد الخطاب حدة وتقريعاً للمنافقين في قوله تعالى : ﴿وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ . ولم يقل : ربحوا في تجارتهم ، لأن المخاطب لا يقتصر على فئة معينة ، وإنما يشمل كل من سار في هذا الطريق في كل زمان ومكان .

وتتتابع مجازات سورة البقرة في حديثها عن الكفار بالمستوى الخطابي نفسه في قوله تعالى: ﴿يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حُدُورَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ﴾^(٣) . واستخدام جملة: ﴿يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ﴾ تصور لنا عظم مصيبة هؤلاء القوم ، وتقلنا أمام مشهد حيّ يصور لنا هول الموقف الذي كان فيه هؤلاء الكفار ، وقد عبر بالأصابع عن الأنامل ، فلو قال : " يجعلون أناملهم في آذانهم " لما كان للصورة هذا الوقع في النفوس ، فمن المحال وضع الإصبع كلها داخل الأذن ، ولكن هذا التعبير جاء مناسباً للحالة التي كانوا عليها ، فمن شدة فزعهم وتخبطهم أرادوا وضع الإصبع كله في آذانهم ؛ ليتلافوا سماع الصواعق . " والمجاز هنا أبلغ من الحقيقة ولذلك عدل عنها إليه وجمع الأصابع لأنه لم يرد إصبعاً معينة لأن الحالة حالة دهش وحيرة" ^(٤) .

وتنتقل إلى الوجه الآخر ، وهو خطاب المؤمنين بأسلوب خطابي مغاير تماماً في قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾^(٥).

١. آية ١٦ من سورة البقرة .

٢. القزويني ، الخطيب : الإيضاح في علوم البلاغة ، ج ١ ، ص ١٠٦ .

٣. بعض الآية ١٩ من سورة البقرة .

٤. الدرويش ، محيي الدين : إعراب القرآن الكريم وبيانه ، ج ١ ، ص ٥١ .

٥. بعض الآية ٢٥ من سورة البقرة .

وهنا تبرز ثنائية الخطاب للمؤمنين والكافرين واضحة ، فالخطاب هنا يبدأ بالبشرى للمؤمنين مقابل التهديد والتحذير للكافرين . وقد بدأ خطاب المؤمنين بقوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ تشریفاً لهم وإعلاءً لمكانتهم . وقد عبّر عن سيل الماء بالجري ؛ لبيان صفاء المياه ونقاها ، "وأحسن الماء ما كان جارياً غير قار لأنه يكون بذلك جديداً كلما اغترف منه شارب أو اغتسل مغتسل" (١) ، ولا يخفى الترغيب الذي يغلف هذه الآيات ، فالخطاب موجه لقوم آمنوا بالله سبحانه ، ليعرف الناس جزاء الإيمان فيرغبون باعتناقه . والأنهار نفسها لا تجري ، * "وهي أمكنة للمياه ، وليست جارية بل الجاري ماؤها" (٢) .

ويعود السياق بنا من خلال المجاز مخاطباً الكفار خطاب تحذير وتقريع في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ﴾ (٣) . والتعبير عن قول المثل بالضرب تعبير مجازي ، له دلالة في هذا السياق - لا سيما - وأن الخطاب جاء لتحدي الكفار في قول الأمثال ، وهم بلغاء العرب ، لذلك جاء التعبير هنا بليغاً باستخدام ألوان البلاغة التي تزيد السياق قوةً وجمالاً . وقوله لا يستحي لأن الكفار كانوا يستهينون بالعنكبوت والبعوض ، فجاء هذا رداً عليهم .

ويختلف مستوى الخطاب في السياق التالي باختلاف المخاطب ، إذ يتجه الخطاب إلى نبي الله آدم - عليه السلام - وزوجه حواء بشيء من التهديد والعتاب لما قاما به بعد تحذيره سبحانه لهم من القيام بذلك في قوله تعالى : ﴿ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ﴾ (٤) . ونلاحظ أنه أسند الإخراج إلى الشيطان ، والمخرج في الحقيقة هو الله ، فإسناد الإخراج إلى الشيطان له دلالة ، وذلك لبيان مصير الخارج عن طاعته سبحانه . وبالرغم من كونه نبي الله إلا أنه تأثر بوسوسة الشيطان . وفي هذا تحذير للمؤمنين كافة من الخروج عن طاعته سبحانه . فلو أسند الإخراج إليه مباشرة دون اللجوء إلى أسلوب المجاز هذا ، لما أدى التعبير هذا التحذير من وسوسة الشيطان الذي أذاه في هذا السياق . فقوله : " فأخرجهما " يبين لنا سبب إخراج سبحانه لهما من الجنة ، فهو تعليل لهذا الإخراج الذي لا يتسنى لنا الوصول إليه إلا بهذا الأسلوب البليغ .

٥٤٣٨٢٧

١. ابن عاشور ، محمد الطاهر : التمرير والتوير ، ج١ ، ص ٣٥٤ .
٢. الهاشمي ، أحمد : جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبيدع ، ص ٢٩٦ .
٣. بعض الآية ٢٦ من سورة البقرة .
٤. بعض الآية ٣٦ من سورة البقرة .

ويتبعه خطاب المؤمنين مستخدماً المجاز للتعبير عن المعنى المطلوب في قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّائِعِينَ﴾^(١). وقد جاء الخطاب هنا ليحث المؤمنين على أداء الفرائض والمحافظة عليها. وقد عبّر عن الصلاة بالركوع، والركوع جزء من الصلاة نفسها التي تشتمل على القيام والقراءة والركوع والسجود والتسليم. أما اختياره للركوع فذلك "لأن اليهود لا ركوع في صلاتهم"^(٢). فقد بدأ بالحث على إقامة الصلاة ثم إيتاء الزكاة، وعاد مرة أخرى للصلاة - وهي ركن أساسي من أركان الإسلام - ليحثهم على أدائها، فلجأ إلى هذا الأسلوب البلاغي، فقد عبّر عن معنى واحد بأسلوبين مختلفين في السياق نفسه، وذلك تأكيداً على إقامة الصلاة والالتزام بها.

ويأتي الخطاب في السياق التالي مذكراً بني إسرائيل ببعض نعم الله عليهم في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُدَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾^(٣)، وقد ذبحوا بعض أبنائهم، وقد عبّر عن ذلك بقوله: ﴿يُدَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ﴾، فهم لم يذبحوا جميع الأبناء، "والمراد من الأبناء هم الذكور خاصة"^(٤). وقد عبر عن البعض بالكل لبيان مدى فظاعة ما قاموا به، وكان لذلك أثر واضح، فاستخدم المجاز هنا أبلغ وأشد تأثيراً في النفس، إذ يرسم لنا صورة مزرية منفرة لما قام به آل فرعون بقوله: "أبناءكم" دون استثناء، تنفيراً من هؤلاء القوم وأعمالهم الوحشية، وتشويهاً لما قاموا به من أعمال، ودلالة على كثرة من قتلوا منهم.

ويعود السياق مرة أخرى ليتوعد الكفار، ولتختلف لغة الخطاب باختلاف المخاطب في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمْ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾^(٥). ويمتاز الخطاب هنا بالشدّة والوعيد لهؤلاء على مقولتهم هذه،

١. آية ٤٣ من سورة البقرة .

٢. الزمخشري ، ، أبو القاسم : الكشاف عن حقائق التنزيل ، ج ١ ص ٢٧٧ .

٣. بعض الآية ٤٩ من سورة البقرة .

٤. أفندي ، إسماعيل حقي : تفسير القرآن المسمى بروح البيان ، ج ١ ، ص ١٢٠ .

٥. آية ٥٥ من سورة البقرة .

وقد جاء الخطاب على لسان الكفار تحدياً لسيدنا موسى - عليه السلام - . "ولم يقولوا جميعاً ، وإنما قال بعضهم ، ويروون أنهم سبعون" (١) . ولم يستثن منهم أحداً ؛ للدلالة على عظم إثم ما قالوا ، وتهديداً للقائلين وزجراً وتقريراً لهم .

وتتنوع ألوان الخطاب في وصف الكفار في قوله تعالى : ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا﴾ (٢) ، والخطاب هنا للتذكير بالنعم . وقد استخدم المجاز للتعبير عن ذلك بقوله : ﴿كُلُوا مِنْهَا﴾ ، دون تحديد ، ولذلك أثره في إعطائهم المجال لينعموا بخيراتها . فقوله : ﴿كُلُوا مِنْهَا﴾ يشمل كل ما فيها من منافع وخيرات ، وهذا من فضله سبحانه عليهم ، لذلك جاء الخطاب خالياً من التهديد والوعيد .

ويعود بنا السياق إلى المؤمنين لتبرز ثنائية الخطاب ، وتتضح الصورة المقابلة لصورة الكفار في قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٣) . ويتسم الخطاب هنا بالترغيب في العمل الصالح . ونلاحظ من خلال الخطاب معالجة نفسية الإنسان الذي اعتاد أن يأخذ مقابل أن يعطي ، فهم مقابل عبادتهم لهم ثواب عند الله سبحانه ، ولكنه عبر عن ذلك بالأجر الذي يلقي تقبلاً في نفوسهم . فهذا الأسلوب يشمل الترغيب للمؤمنين للالتزام بما أمر به سبحانه . وهنا تبرز الثنائية واضحة ، فالترغيب مقابل الترهيب والوعيد ، والخطاب الهادي اللين مقابل الخطاب الشديد الحاد . وهذا تبعاً لاختلاف المخاطب من جهة ، والغرض الذي جاء من أجله الخطاب من جهة أخرى .

ويأتي الخطاب في السياق التالي مغلفاً بالوعيد والتهديد لبني إسرائيل في قوله تعالى : ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ (٤) . "والقتل لم

١. حسين ، عبد القادر : القرآن والصورة البيانية ، ص ١٦٧ .

٢. بعض الآية ٥٨ من سورة البقرة :

٣. آية ٦٢ من سورة البقرة .

٤. آية ٧٢ من سورة البقرة .

يصدر عن الجميع وإنما صدر عن واحد منهم، فعبر بالعام وأراد الخاص^(١)، فالخطاب للجميع؛ لبيان فظاعة ما قاموا به . والمراد من خلال هذا الخطاب تشويه هذا العمل الذي قام به بعضهم ، وهو القتل ، فنسبته إلى الجميع زجراً لمن قام بذلك وتهديداً له .

وتتابع المجازات التي تصف بني إسرائيل في قوله تعالى : ﴿وَإِنَّ مِنَ الْجَبَّارَةِ لَمَّا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَّا يَشَقُّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَّا يَهْبِطُ مِنَ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾^(٢) . ويتسم الخطاب هنا أيضاً بالتفريع، إذ يصف الجبارة بأنها ألين من قلوب بني إسرائيل . وقد أسند الخشية إلى الجبارة في قوله تعالى : ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَّا يَهْبِطُ مِنَ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾. "والخشية مجاز على انقيادها لأمر الله"^(٣) وباستخدام المجاز في إسناد الخشية إلى الجبارة تبرز لنا مدى قسوة هذه القلوب ، فلو عبر عن ذلك بقوله : قلوبهم قاسية ، لما تخيلنا هذه القسوة التي فاقت قسوة الجبارة كما هو الحال باستخدام المجاز الذي عبر عن هذه القسوة خير تعبير .

ويستمر الخطاب في قسوته الموجهة لبني إسرائيل في قوله تعالى : ﴿قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إيمانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾^(٤) ، فالإيمان لا يأمر ، و " في إسناد الأمر إلى الإيمان تهكم بهم"^(٥) ، كما نلاحظ أنه أسند الإيمان لهم ، فهو إيمان من وجهة نظرهم فقط ، وليس هذا هو الإيمان الصحيح ، فقد استخدم أسلوب السخرية والتهكم من خلال هذا السياق ، وهذا لون خطابي آخر ، وفي ذلك تحذير لهم من الإبقاء على هذا الإيمان .

ويعود بنا الخطاب مرة أخرى إلى الوجه المقابل لتكتمل الثنائية ، وتزداد وضوحاً في قوله تعالى ، مخاطباً المؤمنين : ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَجَهَةُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ

١. حسين ، عبد القادر : مع القرآن في إعجازه وبلاغته ، مطبعة الأمانة ، ص ١٧٧

٢. بعض الآية ٧٤ من سورة البقرة .

٣. الزمخشري ، أبو القاسم : الكشاف عن حقائق التنزيل ، ج ١ ، ص ٢٩١

وانظر : أفندي ، إسماعيل حقي : تفسير القرآن المسمى بروح البيان ، ج ١ ، ص ١٥٢ .

٤. بعض الآية ٩٣ من سورة البقرة .

٥. أفندي ، إسماعيل حقي : السابق ، ج ١ ، ص ١٦٩ .

وَاسِعٌ عَلِيمٌ^(١). وجاء الخطاب هنا ليبيّن للمؤمنين بعض أمور دينهم ، ولا يتسنى لذلك إلا أن يكون بهذا الأسلوب الخطابى الحانى . وقد عبّر بقوله " وجه الله " عن " جهته التي أمر بها ورضيها"^(٢) .

وفي لون آخر من ألوان الخطاب يأتي ليتحدى الكفار في قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ ﴾^(٣) . وقد جاء الخطاب هنا ليبين قدرته سبحانه وتعالى . ولفظ "كل" تدل على جميع المخلوقات ، والمقصود بالقانتين هنا أهل الطاعة من المؤمنين ، وقد عبّر عنهم "بكل" دون استثناء للكفار منهم ، للدلالة على أكثر المؤمنين ، وترغيباً للناس بالايامن ، وتحذيراً للكفار في المقابل .

ويأتي الخطاب بلون مختلف ، فهو على لسان سيدنا إبراهيم - عليه السلام - لله عز وجل في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا ﴾^(٤) . ويمتاز الخطاب هنا بالرجاء والتذلل لله سبحانه وتعالى ، ففيه خشوع بطلبه من الله سبحانه أن يجعل هذا البلد آمناً ، والبلد لا يكون آمناً ، " لأن الإحساس بالأمن صفة من صفات الأحياء"^(٥) ، والتعبير عن البلد بأنه آمن له دلالة في بث الأمان والاطمئنان في نفوس المؤمنين وهم في هذا المكان .

ويتجه الخطاب في السياق التالي للرسول - صلى الله عليه وسلم - وللمؤمنين في قوله تعالى : ﴿ قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ﴾^(٦) . وجاء الخطاب هنا لبيان أحكام

١. آية ١١٥ من سورة البقرة .

٢. الزمخشري ، ، أبو القاسم : الكشاف عن حقائق التنزيل، ج ١ ، ص ٣٠٧ .

وانظر : أفندي ، إسماعيل حقي : تفسير القرآن المسمى بروح البيان ، ج ١ ، ص ١٩٤ .

٣. آية ١١٦ من سورة البقرة .

٤. بعض الآية ١٢٦ من سورة البقرة .

٥. عتيق ، عبد العزيز : علم البيان ، ص ١٤٥ - ١٤٦

٦. بعض الآية ١٤٤ من سورة البقرة .

الدين الإسلامي ، والإنسان لا يولي وجهه فقط ، بل يولي جميع جسمه ، " والمراد بالوجه هنا جملة البدن لأن الواجب على المكلف أن يستقبل القبلة بجملة بدنه لا بوجهه فقط ولعل تخصيص الوجه بالذكر للتبويه على أنه الأصل المتبوع في التوجه والاستقبال المتبادر من لفظ المسجد الأكبر الذي فيه الكعبة والحرام"^(١) ، والوجه هو أبرز عضو في جسم الإنسان . ويتبع الأسلوب نفسه في قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾^(٢) ، وتكرار المعنى نفسه جاء للتأكيد على هذا المعنى .

وتتوالى المجازات في سورة البقرة والخطاب للناس بعامة ، يدعوهم فيه للتفكير والتدبر في دلائل قدرته في قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾^(٣) . واستخدام المجاز هنا في حياة الأرض بعد موتها، إذ صور لنا المجاز في هذا السياق لوحة فنية رائعة التنسيق ، صورة حياة الأرض بعد هطول الأمطار ، معبراً عن نمو النباتات بالحياة ، التي وضعتنا أمام صورة حية متحركة مليئة بالألوان والروائح الشذية .

ويكمل الخطاب الصورة السابقة باستخدام المجاز أيضاً في قوله تعالى : ﴿ وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾^(٤) ، وجاء الخطاب هنا أيضاً ليدعو الناس الى التدبر ، معبراً عن تغير مجرى الرياح والسحاب وتبديلها بقوله : ﴿ وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ وَالسَّحَابِ ﴾ ، وهذا يعطي الصورة السابقة مزيداً من الحيوية والحركة .

ونعود مرة أخرى إلى سياق آخر ويكون الخطاب فيه للناس وذلك بتتابع المجازات التي تخاطب الناس نصحاً وإرشاداً في قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالاً طَيِّباً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ * إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾^(٥) . وقد امتاز الخطاب هنا بالشدة ؛ لما فيه من ردع للناس

١. أفندي ، إسماعيل حقي : تفسير القرآن المسمى بروح البيان ، ج١ ، ص ٢٣٣ .

٢. بعض الآية ١٤٩ من سورة البقرة .

٣. بعض الآية ١٦٤ من سورة البقرة .

٤. بعض الآية ١٦٤ من سورة البقرة .

٥. الآيتان ١٦٨-١٦٩ من سورة البقرة .

من اتباع الشيطان ، وقد استخدم لفظة يأمركم للتعبير عن وسوسة الشيطان، والأمر للدلالة على امتثالهم له . فوسوسة الشيطان هي السبب في اتباع السوء والفحشاء . ولو عبّر عن هذا المعنى بقوله : "يدعوكم" لما كان لها هذا الوقع الشديد على اتباع الشيطان . فجاء هذا التعبير ليؤكد انصياع الكفار للسوء والفحشاء ، وفي ذلك تهديد لهم من ناحية ، ودعوة للناس للابتعاد عن هذه الطريق من ناحية أخرى .

ويتجه الخطاب في السياق التالي إلى الكفار في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ﴾^(١) . وهنا يبرز الثنائية مرة ثانية ، ونلاحظ أن الخطاب ينطوي على التهديد شديد اللهجة للكفار ، فهؤلاء القوم لا يأكلون النار ، وإنما عبّر عن أكلهم للباطل بأكل النار ، " فقد جعل ما هو سبب للنار ناراً "^(٢) ، وهو بذلك يصور لهم مصيرهم الذي ينتظرهم جزاء عملهم هذا ، "فإطلاق النار عليه من قبيل إطلاق اسم المسبب على السبب ومعنى في بطونهم ملء بطونهم " ^(٣) . وهذا يؤكد لنا عظم العذاب الذي ينتظرهم . وفي هذا ردع للناس عن أكل الأموال بالباطل بعد أن صور لهم مصير من يفعل ذلك صورة مزرية منفرة ، صورة حية ترسم أمام الأعين بما فيها من ألم ومرارة . وهذا التصوير خير رادع لهم عما يقومون به . "وقوله (في بطونهم) زيادة تشنيع وتقييح لحالهم وتصويرهم بمن يتناول رصف جهنم ، وذلك أقطع سماعاً وأشد إيجاعاً "^(٤) .

وتظهر الثنائية مرة أخرى من خلال خطاب المؤمنين ، والحديث عن الأموال ، ولكنه الوجه المقابل للسياق السابق ، أي الأموال التي تنفق ابتغاء مرضاة الله سبحانه في قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ﴾^(٥) . ولا يخفى الهدوء الذي يغلف الخطاب هنا ، فهو موجه للمؤمنين لبيان أمور دينهم .

١. بعض الآية ١٧٤ من سورة البقرة .

٢. الدرويش ، محيي الدين : إعراب القرآن الكريم وبيانه، ج١، ص ٢٤٧

٣. أفندي ، إسماعيل حقي : تفسير القرآن المسمى بروح البيان، ج١، ص ٢٥٩ .

٤. الصابوني ، محمد علي : صفوة التفاسير، ج ١ ، ص ١١٦ .

٥. بعض الآية ١٧٧ من سورة البقرة .

ونلاحظ إضافة الحب إلى المال ، وإنما هو إلى صاحبه . ولهذا الإسناد دلالة البلاغية التي تكشف لنا نفسية الإنسان في حبه للمال واكتنازه ، والخطاب هنا للترغيب في إنفاقه .

وفي السياق نفسه يستمر الخطاب للمؤمنين في قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ ﴾^(١) . وبما أن الخطاب للمؤمنين فقد بدأ بقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ إعلاءً لمكانتهم . وقد قال : "القتلى" ومعناه الذين سيقتلون في المستقبل . وإنما سماهم قتلى لبيان حكم هذا القتل في حال تعرضهم لهذا الموقف ، وقد جاء ذلك بلون خطابي مختلف يحمل التحذير من مغبة الوقوع في القتل ، ولكنه يمتاز أيضاً بالرأفة ليناسب الفئة المخاطبة ، والغرض الذي جاء من أجله الخطاب .

ويستمر الخطاب في توجيهه للمؤمنين بالمستوى الخطابي نفسه في قوله تعالى : ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ﴾^(٢) . وفي هذا الخطاب بيان لأحد أحكام الدين الإسلامي ، لذلك جاء الخطاب ليناً ، وقد عبر عن شهر رمضان تعبيراً مجازياً ، فالشهر لا يُشاهد ، وإنما الذي يُشاهد هو الهلال الذي يظهر أول ليلة في الشهر ، وبما أنه السبب في وجود الشهر ، فقد عبر عنه بالشهر .

ويتبعه الخطاب التالي للمؤمنين أيضاً في قوله تعالى : ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا يَكُونَ فِتْنَةً وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾^(٣) . فقد عبر عن التصدي للكفار بالعدوان ، والمعتدون حقيقة هم المشركون ، إذ "سُمِّيَ جزاء الاعتداء اعتداءً لأنه مسببٌ عن الاعتداء" ^(٤) .

١ . بعض الآية ١٧٨ من سورة البقرة .

٢ . بعض الآية ١٨٥ من سورة البقرة .

٣ . آية ١٩٣ من سورة البقرة .

٤ . القزويني ، الخطيب : الإيضاح في علوم البلاغة، ج ١، ص ٤٠٠

وفي الخطاب التالي يكمل الحديث عن الغرض نفسه في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾^(١). والخطاب هنا للمؤمنين أيضاً ، وقوله سبحانه ﴿فاعتدوا عليه﴾ ، أي تصدوا له ، فسمى الدفاع اعتداءً . فقد عبر عن المعنى نفسه تعبيراً مجازياً في سياقين مختلفين .

ويتبعه مجاز آخر يكون الخطاب فيه للمؤمنين في قوله تعالى: ﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾^(٢). وهنا تختلف لغة الخطاب ، إذ تتجه إلى النصيحة ، وقوله: ﴿بأيديكم﴾ تعبيراً عن أنفسكم ، واختار الأيدي "لأن البطش والحركة يكون بها"^(٣) ، فليس من الممكن إلقاء اليد دون النفس ، "وتخصيص اليد من بين سائر الجوارح اللازمة لها لأن أكثر الأعمال يظهر بالمباشرة باليد"^(٤) .

ثم يأتي الخطاب بلون آخر مبيناً شروط وزمان الحج في قوله تعالى: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ﴾^(٥) . وقد تم تحديد الزمن بقوله تعالى: "أشهر" مجازاً ، "والمراد شهران وبعض الثالث"^(٦) ، وجمع هذه الأشهر لما فيها من أجر وثواب ، "وإنما سمي شهران وبعض شهر أشهراً مع أن جمع القلة لا يُطلق على ما هو أقل من الثلاثة إقامة للبعض مقام الكل وإطلاقاً للجمع على ما فوق الواحد"^(٧) .

وفي بيان أمور الطلاق للمؤمنين يقول سبحانه: ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ﴾^(٨). وأراد ببُعُولتهن الذين كانوا قبل الطلاق ، وإنما عبر عنهم بالبعولة على اعتبار ما كان، وعلى أمل

١. بعض الآية ١٩٤ من سورة البقرة .

٢. بعض الآية ١٩٥ من سورة البقرة .

٣. الدرويش ، محيي الدين : إعراب القرآن الكريم وبيانه، ج١، ص٢٨٥

٤. أفندي ، إسماعيل حقي : تفسير القرآن المسمى بروح البيان، ج١، ص٢٨٧ .

٥. بعض الآية ١٩٧ من سورة البقرة .

٦. الزركشي ، بدر الدين محمد بن عبدالله : البرهان في علوم القرآن ، ج٢، ص٢٧٣ .

٧. أفندي ، إسماعيل حقي : السابق ، ج١، ص٢٩٢ .

٨. بعض الآية ٢٢٨ من سورة البقرة .

إرجاعهم نساءهم قبل انتهاء مدة العدة ؛ حثاً لهم على المصالحة ، وعدم اللجوء إلى الطلاق .

وفي سياق الحديث عن الموضوع نفسه يقول سبحانه : ﴿ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ ﴾^(١) . "ويسمى الأجنبي زوجاً لأنه بالعقد يصير زوجاً فسماه باسم العاقبة والنكاح هنا لعقد دون الوطاء"^(٢) . أي أنه سُمي زوجاً على اعتبار ما سيؤول إليه بعد العقد ، "لأنها لا تنكح في حال كونه زوجاً"^(٣) .

ويتتابع الخطاب بالأسلوب نفسه في الحديث عن موضوع الطلاق أيضاً في قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ ﴾^(٤) . وهنا أيضاً استخدم أسلوب المجاز في التعبير عن المعنى المقصود ، والمراد بأزواجهن "المطلقين .. لهن"^(٥) على اعتبار ما كان ، ولعل السبب في ذلك هو احتمال عودة الرجل إلى زوجته التي طلقها .

ويأتي الخطاب التالي موجهاً للمؤمنين أيضاً ، لبيان حكم المرأة بعد وفاة زوجها في قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَتُوفَوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ﴾^(٦) . وقد عبر عن المرأة بعد وفاة زوجها بأنها زوجة ، على اعتبار ما كانت قبل الوفاة ، لأنها بعد الوفاة لا تسمى زوجة .

وتختتم مجازات سورة البقرة بخطاب للمؤمنين ينهاهم فيه عن كتم الشهادة في قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ ﴾^(٧) . وقد عبر عن ارتكاب الإثم

١ . بعض الآية ٢٣٠ من سورة البقرة .

٢ . أفندي ، إسماعيل حقي : تفسير القرآن المسمى بروح البيان ، ج ١ ، ص ٣٣٣ .

٣ . الزركشي ، بدر الدين : البرهان في علوم القرآن ، ج ٢ ، ص ٢٧٩ .

٤ . بعض الآية ٢٣٢ من سورة البقرة .

٥ . الصابوني ، محمد علي : صفوة التفاسير ، ج ١ ، ص ١٤٩ .

٦ . بعض الآية ٢٣٤ من سورة البقرة .

٧ . بعض الآية ٢٨٣ من سورة البقرة .

بقوله: "أثم قلبه" ، والقلب لا يأثم ، وإنما الذي يأثم هو صاحبه ، أما عن إسناد الإثم إلى القلب " فقد أسند الإثم إلى القلب ، والمقصود الإنسان كله لا قلبه وحده لسر عجيب ، وهو أن القلب بمثابة الرأس للأعضاء ، وهو المضغة التي إن صلحت صلح الجسد كله " (١) ، فإسناد الإثم إلى القلب جاء " من حيث كان محلاً لاعتقاد الإثم والبر " (٢) .

١. الدرويش ، محيي الدين : إعراب القرآن الكريم وبيانه، ج١، ص٤٤٥

٢. الزركشي ، بدر الدين : البرهان في علوم القرآن ، ج٢، ص٢٦٥.

د- المستوى الرابع : "الكناية"

والكناية كما عرفها الهاشمي بأنها " لفظ أريد به غير معناه الذي وضع له ، مع جواز إرادة المعنى الأصلي لعدم وجود قرينة مانعة من إرادته"^(١) ، أما الجرجاني فيرى أن للكناية خاصة بالمعنى دون اللفظ ، و "أنه لا يُكنى باللفظ عن اللفظ وأنه إنما يكنى بالمعنى عن المعنى"^(٢) ، أما عن سبب كون الكناية أبلغ من التصريح عنده فيرى أنهم إذا "جعلوا للكناية مزية على التصريح لم يجعلوا تلك المزية في المعنى المكنى عنه ، ولكن في إثباته للذي ثبت له"^(٣) .

وقد وردت الكناية في القرآن الكريم لأغراض عدة أبرزها التأدب في الخطاب ، والابتعاد عما يفحش ذكره . وهذا أدب قرآني فريد يضاف إلى آدابه الكثيرة ، والغرض منه تهذيب نفوس الناس بتعليمهم هذا الأسلوب البلاغي ، وانتقاء الألفاظ للتعبير عن " اللفظ القبيح المستهجن ، أو الذي لا ترتاح الأذن إلى سماعه بالجميل المؤلف الذي تنفتح له الأذن وتتصت إليه وتشرح له الصدور وتقبل عليه النفوس"^(٤) .

ومن أسرار الاستجابة الداخلية للخطاب القرآني أنه يتعامل مع النفس الإنسانية بكل أبعادها ، ويستجيب لكل أشواقها وتطلعاتها ، متجنباً كل ما تنفر منه النفس السوية ، وآتياً كل ما يرهف المشاعر ، ويهذب العواطف ، ويقوي الاتجاه نحو الخير والفضيلة . فبعض الكلام يفحش ذكره في السمع ، فيكنى عنه القرآن ؛ انسجاماً مع المنهج القرآني . كقوله تعالى : ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾^(٥) .

وقد عبّرت الكناية في سورة البقرة عن عدة معانٍ ومواضيع بألوانٍ خطابية متنوعة .

١. الهاشمي ، أحمد : جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبيدع ، ص ٣٤٦ .
٢. الجرجاني ، عبد القاهر : دلائل الإعجاز ، ص ٣٤٠ .
٣. الجرجاني ، عبد القاهر : السابق ، ص ٣٤٣ .
٤. الثعالبي ، أبو منصور عبد الملك بن إسماعيل : الكناية والتعريض ، تحقيق عائشة حسين فريد ، دار قباء ، ص ٤٦ .
٥. بعض الآية ٢٢٢ من سورة البقرة.

وأول هذه الكنايات قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾^(١). والخطاب هنا موجه للكفار، وفيه تحذير وتقريع لهم، وذلك بنفي الهداية عنهم "كناية عن إضاعة القصد أي أنهم أضاعوا ما سعوا له ولم يعرفوا ما يوصل لخير الآخر ولا ما يضر المسلمين"^(٢)، وباستخدام أسلوب الكناية نلاحظ الإيجاز في هذا السياق، إذ عبر عن جميع هذه المعاني بقوله: ﴿وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾، "وأختير طريق الكناية نكايه لهم بتجهيلهم وتسفيهم"^(٣).

وتتوالى الكنايات التي تعبر عن معانٍ مختلفة بألوان خطابية متنوعة، ففي قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾^(٤)، "قالتواب هنا معناه الملمم التوبه وهو كناية عن قبول توبه التائب"^(٥)، والخطاب هنا موجه للناس بعامه، ترغيباً للتوجه إليه سبحانه من أجل التوبه، فقد عبر عن قبوله التوبه بإحدى صفاته، وفي ذلك تأنيس لمرتكبي الآثام، معبراً عن ذلك بصيغة المبالغة.

وفي سياق آخر يخاطب فيه المؤمنين تحذيراً وتنبهاً لهم في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا أَوْلَىٰ كَافِرٍ بِهِ﴾^(٦). وفي هذا الخطاب موعظة للمؤمنين، فقد أراد سبحانه الخير لهؤلاء القوم، فلم يعبر عن ذلك صراحة، وإنما استخدم أسلوب الكناية بقوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا أَوْلَىٰ كَافِرٍ بِهِ﴾، والمراد أن يكونوا أول المؤمنين. وقد لعبت الكناية في هذا السياق دورها في اتجاهين: توبيخهم على تأخرهم في اتباع الدين الإسلامي من جهة، ودعوتهم ليكونوا أول المؤمنين من جهة أخرى.

١. بعض الآية ١٦ من سورة البقرة .

٢. ابن عاشور، محمد الطاهر : التحرير والتنوير، ج١، ص٣٠١ .

٣. الألوسي ، أبو الفضل: روح المعاني ج١، ص١٦٢ .

٤. بعض الآية ٣٧ من سورة البقرة .

٥. ابن عاشور ، محمد الطاهر : السابق ، ج١، ص٤٣٩.

٦. بعض الآية ٤١ من سورة البقرة .

والتعبير بالكناية هنا أبلغ من التعبير الصريح ، كقوله آمنوا . فقوله : ﴿ وَلَا تَكُونُوا أُولَٰ كَافِرٍ بِهِ ﴾ أشد تأثيراً في النفس لما فيه من نهيهم شديد اللهجة عن الكفر ، إذ عبّر عن الايمان بالنهي عن ضده.

ويأتي الخطاب مستخدماً أسلوب الكناية في قوله تعالى : ﴿ يُدَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ﴾^(١) . والخطاب هنا لبني إسرائيل ، إذ يذكرهم سبحانه بما كانوا يلاقونه على أيدي فرعون وجنوده ، ليتعظوا ويعتبروا ، لذلك جاء الخطاب زاجراً وواعظاً . أما قوله : ﴿ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ﴾ فهو كناية "المقصد منه خبيثاً وهو أن يعتدوا على أعراضهن ولا يجدن بدأ من الإجابة بحكم الأسر والاسترقاق فيكون قوله ﴿ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ﴾ كناية عن استحياء خاص ولذلك أدخل في الإشارة في قوله : ﴿ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾^(٢) ، ولو كان المراد من الاستحياء ظاهراً لما كان وجه لعطفه على تلك المصيبة " (٣) ، والغرض من استخدام الكناية هنا هو التآدب في الخطاب ، والبعد عن الفحش في القول حفاظاً على نساءهم .

وتتخذ الكناية لوناً خطابياً آخر في قوله تعالى : ﴿ قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُؤًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾^(٤) . وقد جاء الخطاب هنا على لسان سيدنا موسى - عليه السلام - رداً على قومه . وقوله : ﴿ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ نفي للجهالة والاستهزاء عن نفسه " على طريق الكناية " (٥) . فالغرض تنزيهه - عليه السلام - مما لا يليق بالرسول . فهو لم يتهمهم بالجهل صراحة ، وإنما لجأ للتعبير عن ذلك بنفي الجهالة عن نفسه ، وإثباتها لهم باستخدام أسلوب الكناية .

١ . بعض الآية ٤٩ من سورة البقرة .

٢ . بعض الآية ٤٩ من سورة البقرة .

٣ . ابن عاشور ، محمد الطاهر : التحرير والتنوير ، ج ١ ، ص ٤٩٣ .

٤ . بعض الآية ٦٧ من سورة البقرة .

٥ . الألويسي ، أبو الفضل : روح المعاني ، ج ١ ، ص ٢٨٦ .

وتأتي الكناية في سياق آخر لتعبر عن أهل الكتاب في قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيًّا وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾^(١). فقد عبّر عن الوعد الكاذب بالأماني، "وقيل الأماني هنا الأكاذيب أي ما وضعه لهم الذين حرفوا الدين، وقد قيل الأماني القراءة أي لا يعلمون الكتاب إلا كلمات يحفظونها ويدرسونها لا يفقهون منها معنى كما هو عادة الأمم الضالة"^(٢). ونلاحظ أن الكناية هنا جاءت أيضاً للإيجاز، والتعبير عن معانٍ كثيرة بعبارة واحدة. فمن خلال لفظة الأماني يبين لنا مدى جهالة أهل الكتاب بالقرآن الكريم.

وفي السياق التالي تأتي الكناية لتعبر عن المؤمنين في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾^(٣)، وهو خطاب ترغيب، فالكناية في هذا السياق تحمل ترغيباً وترهيباً، ترغيباً للمؤمنين بالثواب، وترهيباً للكافرين بالعقاب. وهذا يعكس لونين من الخطاب في السياق نفسه. والآية الكريمة "كناية عن عدم إضافة جزاء المحسن والمسيء، لأن العليم القدير إذا علم شيئاً فهو يرتب عليه ما يناسبه إذ لا يذله جهل ولا يعوزه عجز وفي هذا وعد لهم يتضمن وعيداً لغيرهم"^(٤).

وتلعب الكناية دوراً بارزاً في خطاب الرسول - صلى الله عليه وسلم - . والمسلمين في قوله تعالى: ﴿حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾^(٥). وهذه الكناية جاءت لتعبر عن تحدي الكفار للرسول - صلى الله عليه وسلم - وذلك لأنهم على يقين من أن الرسول والمسلمين لا يمكن أن يتبعوا دينهم، وقد أدت الكناية هنا غرضاً بلاغياً، وهو الإيجاز، فقد جاءت لتؤكد للرسول - صلى الله عليه وسلم - استحالة اتباع اليهود والنصارى للدين الإسلامي. فالخطاب هنا يتضمن التينيس للرسول - عليه الصلاة والسلام - من اتباعهم دينه.

١. آية ٧٨ من سورة البقرة .

٢. ابن عاشور، محمد الطاهر: التحرير والتوير، ج١، ص٥٧٥.

٣. بعض الآية ١١٠ من سورة البقرة .

٤. ابن عاشور، محمد الطاهر: السابق، ج١، ص ٦٧٢.

٥. بعض الآية ١٢٠ من سورة البقرة .

وتأخذ الكناية شكلاً من أشكال التعبير الدال على معنى الغضب من خلال عدم التكليم، أو التزكية في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾^(١)، وجاءت الكناية بالإعراض عن الكلام، لأن الكلام دلالة على المحبة والرضى، والإعراض عنه دلالة على الغضب، وجاء التوافق واضحاً بين عدم الكلام أولاً، ثم عدم التزكية ثانياً في صورة من صور الكناية التي تعبر عن المعنى. فمن لا يكلم لا يزكي. وتنتهي الكناية بالوعيد والتهديد للكفار.

وفي السياق التالي يعود الخطاب للمؤمنين يدعوهم إلى الالتزام بالفرائض، ومنها الصوم في قوله تعالى: ﴿أَيَّاماً مَّعْدُودَاتٍ﴾^(٢)، وقوله: "معدودات" كناية عن قلتها؛ والقليل هو الذي يُعَدُّ، وإنما عبر عن رمضان بأيام وهي جمع قلة ووصف بمعدودات وهي جمع قلة أيضاً؛ تهويناً لأمره على المكلفين^(٣)، وترغيباً للمؤمنين بأداء هذه الفريضة.

ويستخدم الأسلوب الكناني في السياق التالي ابتعاداً عن الفحش في القول، ويظهر ذلك في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضاً أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ﴾^(٤)، والخطاب هنا موجه للمؤمنين الذين يؤدون فريضة الحج، وقوله: ﴿أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ﴾ كناية عن الوسخ الشديد والقمل، لكرهية التصريح بالقمل^(٥). وهذا من قبيل التآدب في الخطاب، والابتعاد عن الفحش في القول، وذلك ليناسب المخاطب، والغرض الذي جاء من أجله السياق. وتتضمن هذه الكناية حث المسلمين على النظافة التي هي شرط أساسي لأداء الفرائض من جهة، ورأفة بالمؤمنين الذين يعانون مرضاً ينتج عنه ذلك الأذى أن يجدوا فدية الحج من جهة أخرى.

١. بعض الآية ١٧٤ من سورة البقرة.

٢. بعض الآية ١٨٤ من سورة البقرة.

٣. ابن عاشور، محمد الطاهر: التحرير والتنوير، ج٢، ص ٢٢٤.

٤. بعض الآية ١٩٦ من سورة البقرة.

٥. ابن عاشور، محمد الطاهر: السابق، ج٢، ص ٢٢٤.

وتأتي الكناية لتكشف عن ثنائية الخطاب في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ﴾^(١). ويمتاز الخطاب هنا بأنه خطاب تحذير وترهيب، فهو موجه للكفار في صدّهم عن الدين الإسلامي. وقوله: ﴿أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ﴾ كناية عن عدم استماعه للنصح والإرشاد، وصدّه للرسول - صلى الله عليه وسلم - والعزّة هنا هي عزّة الجاهلية المذمومة، وقد اقترنت لفظة الإثم بالباء التي هي لمصاحبة الظلم والعدوان والإثم.

وتأتي الكناية لتبين للمؤمنين أموراً مرتبطة بحياتهم الاجتماعية والأسرية في قوله تعالى، مخاطباً المؤمنين: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَ﴾^(٢)، وقد عبّر عن الوطء أو الجماع بالنكاح، وذلك للابتعاد عما يفحش قوله، مع إيصال المعنى المطلوب - لا سيما - وأن الحديث عن علاقة مقدسة تربط المؤمن بزوجته.

ثم تأتي الكناية لتعبر بألوان خطابية متنوعة عن العلاقة الزوجية المقدسة، هذه العلاقة التي تُبنى عليها الأسرة المسلمة، ومن ذلك قوله تعالى مخاطباً المؤمنين فيما يخص علاقتهم بنسائهم: ﴿فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي المَحِيضِ﴾^(٣)، معبراً عن الجماع أو النكاح بقوله: ﴿فَاعْتَزِلُوا﴾، أي لا تنكحوا النساء أثناء المحيض، واستخدام الكناية هنا بالبعد عما يفحش ذكره يلائم الحديث عن هذه العلاقة الإنسانية المقدسة، وفي ذلك أيضاً كفاً الأذى عن كلا الزوجين خلال فترة المحيض.

ويعبّر عن المعنى نفسه في سياق آخر بلون خطابي مختلف في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾^(٤). فقد كنى عن مجامعتهن بقوله: "فأتوهن"؛ أي فعودوا إلى مجامعتهن مرة أخرى. والخطاب هنا للمؤمنين أيضاً، وهذا الأسلوب الكنائي

١. بعض الآية ٢٠٦ من سورة البقرة.

٢. بعض الآية ٢٢١ من سورة البقرة.

٣. بعض الآية ٢٢٢ من سورة البقرة.

٤. بعض الآية ٢٢٢ من سورة البقرة.

من شأنه أن يعلم المسلمين الإقتداء بالقرآن الكريم عن طريق استخدام الكناية بدل التصريح عما يفحش قوله . من هنا نلاحظ تميّز الخطاب في حديثه مع المؤمنين في تفاصيل حياتهم الأسرية بهذا الأسلوب الحاني .

ويأتي الخطاب في صورة أخرى ليعبر عن المعنى نفسه في قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ لَا تُوَاعِدُوهُمْ سِرًّا﴾^(١) ، والخطاب هنا موجه للمؤمنين أيضاً ، "فكنى عن الجماع بالسر . وفيه لطيفة أخرى ، لأنه يكون من الأدميين في السر غالباً"^(٢) .

وتعبر الكناية مرة أخرى عن هذه العلاقة بأسلوب مختلف في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ﴾^(٣) ، وما زال الخطاب للمؤمنين ، وقد "كنى تعالى بالمس عن الجماع تأديباً للعباد في اختيار الألفاظ فيما يخاطبون به"^(٤) . وفي ذلك حفاظ على أعراض المؤمنات . ومن إعجاز القرآن التعبير عن المعنى الواحد بعدة كنايات في سياقات مختلفة كما هو واضح من خلال الآيات السابقة .

ويتجه خطاب الكافرين في سياق آخر ، مستخدماً لغة مختلفة باختلاف المخاطب في قوله تعالى: ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾^(٥) ، والخطاب هنا مغلف بالوعيد والتهديد ، ليتعظ الناس ويرتدعوا عن الكفر . "ونفي الأنصار كناية عن نفي النصر والغوث في الآخرة وهو ظاهر"^(٦) . فقد عبر عن غضبه عليهم بنفي نصرته لهم ، والنصرة لا تكون إلا لمن كان مرضي عنه .

وفي تصوير عجز الكافرين يأتي الخطاب بالكناية لتعبر عن المعنى المطلوب في قوله

١ . بعض الآية ٢٣٥ من سورة البقرة .

٢ . الزركشي ، بدر الدين : البرهان في علوم القرآن ، ج٢ ، ص٣٠٣ .

٣ . بعض الآية ٢٣٧ من سورة البقرة .

٤ . الصابوني ، محمد علي : صفوة التفاسير ، ج١ ، ص١٥٣ .

٥ . بعض الآية ٢٧٠ من سورة البقرة .

٦ . ابن عاشور ، محمد الطاهر : التحرير والتنوير ، ج٢ ، ص٦٦ .

تعالى: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ﴾^(١) ، والخطاب هنا يشمل الوعيد والتهديد للكفار من جهة ، والموعظة للمؤمنين من الجهة الأخرى . وقد عبّر عن عجزهم عن السعي والتجارة "بالضرب" ، لأن الإنسان في سفره طلباً للتجارة أو العمل يضرب الأرض برجليه .

وتختتم هذه الكنايات بالتعبير عن الامتثال للأوامر من خلال السمع في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾^(٢) ، والخطاب هنا موجه للرسل والمؤمنين ، والقول هنا على لسان الرسل ، ففيه امتثال وخشوع لله تعالى ، فهم يستمعون أولاً ثم يطيعون امتثالاً وتقرباً ؛ والمؤمن هو الذي يستمع ويتقبل الأوامر ، ومن ثمّ يقوم بتنفيذها والتقيّد بها .

وقد كشفت الكناية فيما سبق عن الكثير من المعاني موجزة ، أو مهذبة تبتعد بالمعنى عما يفحش ذكره وينبو عن الأسماع . وهو أسلوب قرآني يقف إلى جانب الأساليب البلاغية الأخرى في تأدية المعنى . "ومن أسباب بلاغة الكنايات أنها تضع لك المعاني في صورة المحسوسات ولا شك أن هذه خاصة الفنون ، فإن المصور إذا رسم لك صورة للأمل أو لليأس ، بهرك وجعلك ترى ما كنت تعجز عن التعبير عنه واضحاً ملموساً" (٣) .

والكناية من الأساليب البلاغية التي تولّد عند المخاطب رغبة في الكشف عن المعنى المقصود . وقد لاحظنا اختلاف أسلوب الخطاب عبر استعراضنا لهذه الكنايات وتحليلها ، فهو يختلف باختلاف المخاطب والغرض الذي ورد من أجله . "وقد يعمد المتكلم إلى التسامي والترفع في الصورة الكنائية من أجل خلق جو نفسي إيحائي خاص عند المتلقي ، لما للصورة الكنائية الجديدة وعناصرها من دلالة إيحائية مناسبة تختلف عن الدلالة الإيحائية التي يخلقها التعبير المباشر" (٤) .

١ . بعض الآية ٢٧٣ من سورة البقرة .

٢ . بعض الآية ٢٨٥ من سورة البقرة .

٣ . الهاشمي ، أحمد : جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبدیع ، ص ٣٥٤

٤ . أبو العدوس ، يوسف : المجاز المرسل والكناية ، الأهلية للنشر ، ص ٢٠٧ .

الخاتمة :

أفضى الفصل الأول إلى عدة نتائج أهمها: أن لغة القرآن لغة لها ما يميزها على مستوى التعبير البلاغي ويكمن هذا التميز في كيفية استخدام الألفاظ وسيلة للتعبير عن المعاني والأفكار ، واحتلال كل لفظة مكانها المناسب ، وارتباطها بغيرها من الألفاظ التي تعبر عن المعاني . وقد اختار القرآن الكريم التعبير بالصورة عن المعاني التي يُراد إثباتها في ذهن المتلقى ، فنقل له الأفكار والمعاني بصورة حسية كأنها لوحات فنية . بالإضافة إلى تعبيره عن بعض المعاني والأفكار تعبيراً رمزياً ، يوسع مدارك المتلقى ، ويفتح أمامه مجالاً رحباً للتفكير؛ ليصل إلى المعنى المقصود عبر إحياءات الرمز المستخدم .

وانتهيتُ في الفصل الثاني إلى أن القرآن الكريم خاطب فئات مختلفة من الناس ، فكان لكل فئة منهم خطاب يميزه عن غيره . كما امتاز خطاب الرسل - عليهم السلام - بالتشريف والتعظيم ؛ وذلك بجعلهم الواسطة في الخطاب بين الله عز وجل وأقوامهم ، أما خطاب سيدنا محمد - صلى الله عليه وسلم - فقد امتاز عن غيره من الرسل والأنبياء بالنداء بـ "يا أيها النبي" زيادةً في التشريف والتعظيم، فضلاً عن اختصاصه بالبشريات الطيبة التي ينقلها لأمته . أما خطاب المؤمنين فكان بـ "يا أيها الذين آمنوا" تشريفاً لهم ، وإعلاءً لمكانتهم ، في حين امتاز خطاب الكفار بالزجر والترهيب والوعيد ؛ تنفيراً منهم وتحذيراً لهم ، وامتاز خطاب الناس كافة بـ "يا أيها الناس" لدعوتهم إلى طريق النور والهداية وتجنب طرق الضلال . مما تقدم نلاحظ أن لغة الخطاب اختلفت باختلاف المخاطبين من جهة ، والغرض الذي جاء من أجله الخطاب من الجهة الأخرى .

وفي الفصل الثالث انتهيت إلى أن عناصر التشبيهات مستمدة من الطبيعة ، كما أنها مشتملة على عناصر قوية هي سبب استمرارها وبقائها ، واستخدم الاستعارة في التعبير عن بعض المعاني والأفكار ، فكانت جازمة في حديثها عن الكفار ، حية متحركة في حديثها عن المؤمنين . كما تمّ استخدام المجاز الكلي وسيلة للتعبير عن المعاني التي يُراد تشويه أعمال

الكفار من خلالها ، وإظهار عظم ما حل بهم ، وقد لعب المجاز دوراً بارزاً في إظهار نفسية المنافقين والتعرف على صفاتهم ؛ تحذيراً منهم . أما استخدام الأسلوب الكنائي في القرآن الكريم فكان تادباً في الخطاب ، وابتعاداً عما يفحش ذكره .

وفي نهاية هذه الرسالة أرجو أن يكون الله سبحانه وتعالى قد وفقني في الوصول إلى نتائج قيمة تُفيد القاريء والباحث في القرآن الكريم والتعرف على إعجازه وبلاغته .

The Conclusion

In the first chapter, I have reached the following conclusions: The most important one is that the language in the Holy Koran is miraculous and of high quality. This miracle appears in the way words are used to express meanings and thoughts, and the way each word is in its suitable position and its connection to other words. The Holy Koran expresses thoughts and meanings in a sensitive way as if they were paintings.

In addition to its expression of meanings and thoughts in a very symbolic way. The Holy Koran widens the reader's awareness and it opens up new avenues for thinking until it reaches the desired meaning.

In the second chapter, I have reached these considerations: The Holy Koran has addressed different kinds of people giving each type a special address, The Holy Koran has also given special dignity and honor to the prophet's words since it has given them the honour to be the mediator between Allah and their nations. Our prophet's Mohammad has been given the most honourable position among other prophets since Allah has addressed him by saying, "Oh, prophet..". It is worth mentioning that The Koran has honoured its believers in many verses. However, unbelievers were addressed in a very frightening way as a warning for them. People as a whole were addressed as "people" showing them good and evil. From this paragraph we can conclude that the addressees changed according to the addressees and according to the purpose of the address.

In the third chapter, I have found elements of similarities taken from nature. The strength of these elements are the reason for its continuity. We find the expressions of meanings and thoughts being very serious in talking about unbelievers revealing their dark sides, but very flexible in talking about believers.

Finally, I hope that I have accomplished this matter successfully and given the reader conclusions that might be of great help.

قائمة المصادر والمراجع

- ١- القرآن الكريم .
- ٢- ابن الأثير، ضياء الدين : المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق أحمد الحوفي ويدوي طبانة ، مكتبة نهضة مصر ، الطبعة الأولى ١٩٦٠م ، الجزء الأول والثاني والثالث والرابع .
- ٣- ابن الأثير ، نجم الدين محمد بن إسماعيل : جوهر الكنز ، تحقيق محمد زغلول سلام، منشأة المعارف .
- ٤- ابن رشيقي ، أبو علي الحسن، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ، حققه محمد محيي الدين عبد الحميد ، مكتبة السعادة بمصر ، الطبعة الثالثة ١٩٦٣م ، الجزء الأول .
- ٥- ابن عاشور ، محمد الطاهر : التحرير والتتوير ، دار سحنون ، الجزء الأول والثاني والثالث والرابع .
- ٦- ابن القيم ، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر: الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان ، دار الكتب العلمية - بيروت .
- ٧- ابن القيم ، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر : التفسير القيم ، حققه محمد حامد الفق ، دار الكتب العلمية - بيروت .
- ٨- ابن ناقبا ، مصطفى الصاوي الجويني : الجمان في تشبيهات القرآن ، مطبعة الجيزة بالإسكندرية .
- ٩- أبو العدوس ، يوسف : المجاز المرسل والكناية ، الأهلية للنشر .

- ١٠- أبو علي ، محمد بركات حمدي : مناهج وآراء في لغة القرآن ، دار الفكر ١٩٨٤م.
- ١١- أبو موسى ، محمد حسنين : البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري وأثرها في الدراسات البلاغية ، دار الفكر العربي .
- ١٢- أحمد ، محمد فتوح : الرمز والرمزية في الشعر المعاصر ، دار المعارف ، الطبعة الثالثة ١٩٨٤م .
- ١٣- إسماعيل ، عز الدين : الشعر العربي المعاصر قضاياها وظواهره الفنية والمعنوية ، دار العودة - بيروت ، الطبعة الثانية ١٩٧٢م .
- ١٤- إسماعيل ، عز الدين : الأسس الجمالية في النقد الأدبي ، الطبعة الأولى .
- ١٥- أفندي ، إسماعيل حقي : تفسير القرآن المسمى بروح البيان ، الجزء الأول .
- ١٦- الألوسي ، أبو الفضل شهاب الدين محمود : روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ، إدارة الطباعة المنيرية ، الجزء الأول .
- ١٧- الباقلائي ، القاضي أبو بكر : إعجاز القرآن على هامش الإتقان للسيوطي ، المكتبة الثقافية ، الجزء الأول .
- ١٨- بدوي ، أحمد أحمد : من بلاغة القرآن ، مكتبة نهضة مصر ، الطبعة الثالثة .
- ١٩- بدوي ، أحمد أحمد : أعلام العرب عبد القاهر الجرجاني وجهوده في البلاغة العربية ، المؤسسة المصرية العامة ، الطبعة الثانية .
- ٢٠- بالطاهر ، بن عيسى : المقابلة في القرآن الكريم ، دار عمار ، الطبعة الأولى ٢٠٠٠م.

- ٢١- البيضاوي ، ناصر الدين أبو سعيد عبدالله بن عمر بن محمد الشيرازي : أنواز
التزليل وأسرار التأويل ، دار الجيل .
- ٢٢- الثعالبي ، أبو منصور عبد الملك بن إسماعيل : الكناية والتعريض ، تحقيق عائشة
حسين فريد ، دار قباء .
- ٢٣- الجرجاني ، عبد القاهر : دلائل الإعجاز ، صحح أصله محمد عبده ومحمد محمود
التركزي الشنقيطي ، وقف على تصحيح طبعه وعلق حواشيه محمد رشيد رضا ، دار
المعرفة .
- ٢٤- الجرجاني ، عبد القاهر : أسرار البلاغة ، تحقيق هـ. ريتز ، الطبعة الثالثة .
- ٢٥- الجرجاني ، محمد بن علي بن محمد : الإشارات والتنبيهات في علم البلاغة ، تحقيق
عبد القادر حسين ، دار النهضة ، مصر .
- ٢٦- الحاوي ، إيليا : الرمزية والسريالية في الشعر الغربي والعربي ، دار الثقافة -
بيروت ١٩٨٠م .
- ٢٧- الحديدي ، محمد أبو النوار: البيان دفع التعارض المتوهم بين آيات القرآن ، مطبعة
الأمانة .
- ٢٨- حسين ، عبدالقادر: القرآن والصورة البيانية ، عالم الكتب ، الطبعة الثانية .
- ٢٩- حسين ، عبد القادر : مع القرآن في إعجازه وبلاغته ، مطبعة الأمانة .
- ٣٠- خطابي ، محمد : لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب .

- ٣١- الخفاجي ، ابن سنان : سر الفصاحة ، تحقيق عبد الرازق أبو زيد زايد ، مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٧٦م.
- ٣٢- درويش ، أحمد : الأسلوب والأسلوبية .
- ٣٣- الدروي ش ، محيي الدين : إعراب القرآن الكريم وبيانه ، دار ابن كثير ، الطبعة الرابعة ، المجلد الأول .
- ٣٤- ديتش ، ديفد : مناهج النقد الأدبي بين النظرة والتطبيق ، ترجمة محمد يوسف نجم ومراجعة إحسان عباس ، دار صادر - بيروت .
- ٣٥- الرازي ، فخر الدين محمد بن عمر : نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز ، تحقيق وتقديم إبراهيم السامرائي ومحمد بركات حمدي أبو علي ، دار الفكر .
- ٣٦- الرضي ، الشريف : تلخيص البيان في مجازات القرآن ، حققه محمد عبد الغني حسن ، دار مكتبة الحياة ، الطبعة الأولى ١٩٩٥م.
- ٣٧- الزركشي ، بدر الدين محمد بن عبدالله : البرهان في علوم القرآن ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار إحياء الكتب العربية ، الطبعة الأولى ١٩٥٨م ، الأجزاء ١-٤ .
- ٣٨- الزمخشري ، أبو القاسم جار الله محمود بن عمر : الكشاف عن حقائق التنزيل ، دار المعرفة ، الجزء الأول .
- ٣٩- الزيّات ، أحمد : دفاع عن البلاغة .
- ٤٠- السكاكي ، أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر محمد بن علي : مفتاح العلوم ، طبعة وشرحه نعيم زرزور ، دار الكتب العلمية - بيروت .

- ٤١- سلطان ، ناديا : التصوير بالكلمات مشروع دراسة للصورة الفنية في القرآن ، إشبيلية للدراسات - دمشق، الطبعة الأولى ١٩٧٧م.
- ٤٢- السيوطي ، جلال الدين عبد الرحمن : الإتيان في علوم القرآن ، المكتبة الثقافية - بيروت ، الطبعة الأولى ١٩٧٩م ، الجزء الثاني .
- ٤٣- السيوطي ، جلال الدين عبد الرحمن : معترك الأقران في إعجاز القرآن ، تحقيق علي محمد البجاوي ، دار الفكر العربي ، المجلد الأول .
- ٤٤- شرف ، حفني محمد : التصوير البياني ، مكتبة الشباب .
- ٤٥- شرف، حفني محمد :الصور البيانية بين النظرية والتطبيق ، دار النهضة مصر ١٩٦٥م.
- ٤٦- الصابوني ، محمد علي : صفوة التفاسير ، دار القلم ، المطبعة الخامسة ، الجزء الأول .
- ٤٧- الصرصري ، الطوفي سليمان بن عبد القوي بن عبد الكريم : الأفسير في علم التفسير ، تحقيق عبد القادر حسين ، المطبعة النموذجية .
- ٤٨- عامر ، فتحي أحمد : المعاني الثانية في الأسلوب القرآني ، منشأة المعارف .
- ٤٩- عباس ، حسن : إطلالة على الإعجاز اللغوي في القرآن ، دار المستقبل ، الطبعة الأولى ١٩٩٤ .
- ٥٠- عبد الحميد ، محسن : دراسات في أصول تفسير القرآن ، مطبعة الوطن العربي .
- ٥١- عبدالله ، محمد حسن: الصورة والبناء الشعري ، دار المعارف .

- ٥٢- عبدالله ، محمد صادق حسن : جماليات اللغة وغنى دلالاتها من الوجهة العقديّة والفنيّة والفكرية ، الطبعة الأولى ١٩٩٣م .
- ٥٣- عتيق ، عبدالعزيز : في البلاغة العربية علم البيان ، ١٩٧٢م .
- ٥٤- العسكري ، أبو هلال : الصناعتين ، تحقيق علي محمد البجاوي ومحمد فضل إبراهيم ، القاهرة ، الطبعة الأولى .
- ٥٥- عصفور ، جابر : الصورة الفنيّة في التراث النقدي والبلاغي عند العرب ، دار التنوير ، الطبعة الثانية .
- ٥٦- العلوي ، يحيى بن حمزة بن علي إبراهيم : الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز ، دار الكتب العلمية - بيروت ، المجلد الأول .
- ٥٧- عودة ، خليل : مستويات الخطاب البلاغي في النص الشعري ، مجلة جامعة النجاح للأبحاث ، المجلد الثالث عشر ، العدد الثاني ١٩٩٩م .
- ٥٨- عيد ، رجاء : دراسة في لغة الشعر ، منشأة المعارف .
- ٥٩- فضل ، صلاح : بلاغة الخطاب وعلم النص ، مكتبة لبنان ، الطبعة الأولى ١٩٩٦م .
- ٦٠- فضل ، صلاح : علم الأسلوب مبادئه وإجراءاته ، مؤسسة مختار .
- ٦١- قدامة ، أبو الفرج بن جعفر : نقد الشعر ، تحقيق وتعليق محمد عبد المنعم خفاجي ، دار الكتب العلمية - بيروت .
- ٦٢- القزويني ، الخطيب : الإيضاح في علوم البلاغة ، تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي ، دار الكتاب اللبناني ، الطبعة الرابعة ١٩٧٥م ، الجزء الأول .

- ٦٣- القطن ، مناع: مباحث في علوم القرآن ، مؤسسة الرسالة ، الطبعة الثانية عشر .
- ٦٤- قطب ، سيد : التصوير الفني في القرآن، دار المعارف .
- ٦٥- قطب ، سيد: في ظلال القرآن ، الأجزاء ١-٤ .
- ٦٦- قنبيي ، حامد صادق : المشاهد في القرآن الكريم دراسة تحليلية وصفية ، مكتبة المنار ، الطبعة الأولى .
- ٦٧- الكلبى ، محمد بن أحمد بن جزى : التسهيل لعلوم التنزيل ، المكتبة التجارية الكبرى ، مطبعة مصطفى محمد ، الطبعة الأولى ، الجزء الأول .
- ٦٨- المصري ، ابن أبي الإصبع: بديع القرآن ، تقديم وتحقيق حفني محمد شرف ، مكتبة نهضة مصر ، الطبعة الأولى .
- ٦٩- موسى ، إبراهيم نمر : حداثة الخطاب وحداثة السؤال ، مركز القدس ، الطبعة الأولى ١٩٩٥م.
- ٧٠- ناجي ، مجيد عبد الحميد : الأسس النفسية لأساليب البلاغة العربية ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٠م.
- ٧١- الهاشمي ، أحمد : جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع ، الطبعة الثانية عشر .
- ٧٢- هلال ، محمد غنيمي : النقد الأدبي الحديث ، الطبعة الثالثة .